

مصر

منارة حوض البحر المتوسط

د. اسحق عبيد

كلية الآداب
جامعة عين شمس

تقديم

ضمن السلسلة التاريخية لمصر والتى حرصت الإدارة المركزية لإعداد القادة على القاء الضوء عليها بهدف بعث الإنتماء لدى شبابنا وإثارة أهتمامه تجاه عراقة تاريخة وأصالته والتى بدأناها بكتاب «أعرف بلدك» ثم «مصر .. ملحمة تاريخية» .

يسعدنا أن نقدم اليوم كتاب .. مصر . منارة حوض البحر المتوسط ، للأستاذ الدكتور / اسحق تاضروس عبيد والحاصل على درجة الدكتوراه فى الحضارة والتاريخ « نوتنجهام بإنجلترا » وهو أستاذ بكلية الآداب جامعة عين شمس ويجيد اللاتينية واليونانية ، الفرنسية ، الإنجليزية ، الإيطالية . كما أنه شارك فى العديد من المؤتمرات الدولية عن « أثر الحضارة العربية على العقل الأوربى فى العصور الوسطى » فى كل من بالرمو ، صقلية ، روما ، قبرص ، لندن ، وهو أستاذ زائر فى جامعات الكويت ، اليمن ، بنغازى ، ليبزج بألمانيا ، رويل هول لواى بإنجلترا وجامعة بنسلفانيا بالولايات المتحدة .

ويشرفنا أن يكون بين يديك عزيزى القارئ وصديقى الشاب هذا الكتاب بمعلوماته الغزيرة المتنوعة وأسلوبه السلس مدعماً بالصور التى تكمل المعلومه وتغذيها آملين أن نكون قد وفقنا فيما نصبو إليه .. وإلى لقاء .

وكيل الوزارة

رئيس الإدارة المركزية لإعداد القادة

عليه عبد المعز منصور



هذا الكتيب المتواضع رؤية مبسطة
لبعض الجوانب الحضارية المصرية
التى إغترف منها اليونان والرومان
تباعاً وصولاً إلى اليوم الذى
سطعت فيه شمس العرب
على أرض النيل الكريم

الفصــــول

أولاً : فجر الضمير :

مصر هبة السواعد المصرية - نقش الكلمة - المصرى مخلوق نهرى- لوح نارمر- تاسوع آتوم - عودة الروح - الفرعون الثائر - مكونات الضمير - الحكم والأمثال المصرية - ملحمة إيزيس - نشيد النيل .

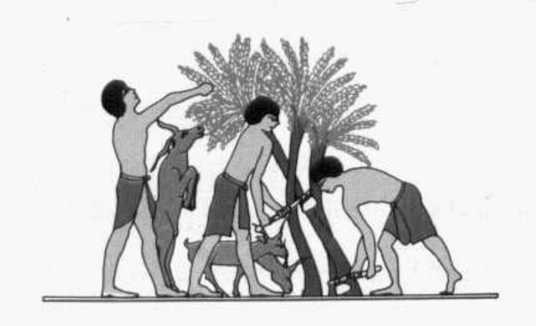
ثانيــاً : مصر مُرضعة حوض البحر المتوسط :

أعلام الفكر اليونانى فى مصر : طاليس ، أناكسيمندر ، ديموقريطس ، هيرودوت ، أفلاطون ، ذو القرنين فى مصر - الإسكندرية عروس البحر المتوسط - المصريون ثائرون - سيرابس - مكتبة الإسكندرية - علماء الإسكندرية من كاليماخوس إلى هباتيا .

ثالثـاً : شمس العرب تسطع على أرض النيل الكريم :

نهاية البطالمة - الحكم الرومانى لمصر - اضطهاد أهل مصر من دقلديانوس إلى هرقل - المصريون يتطلعون إلى أبناء أختهم هاجر لتخليصهم من المخالب الهلينية والرومانية - القائد عمرو بن العاص ومعركة حصن بابليون - شمس العرب تسطع على أرض النيل الكريم .

الغلاف والاخراج الفنى : مدحت عبد السميع



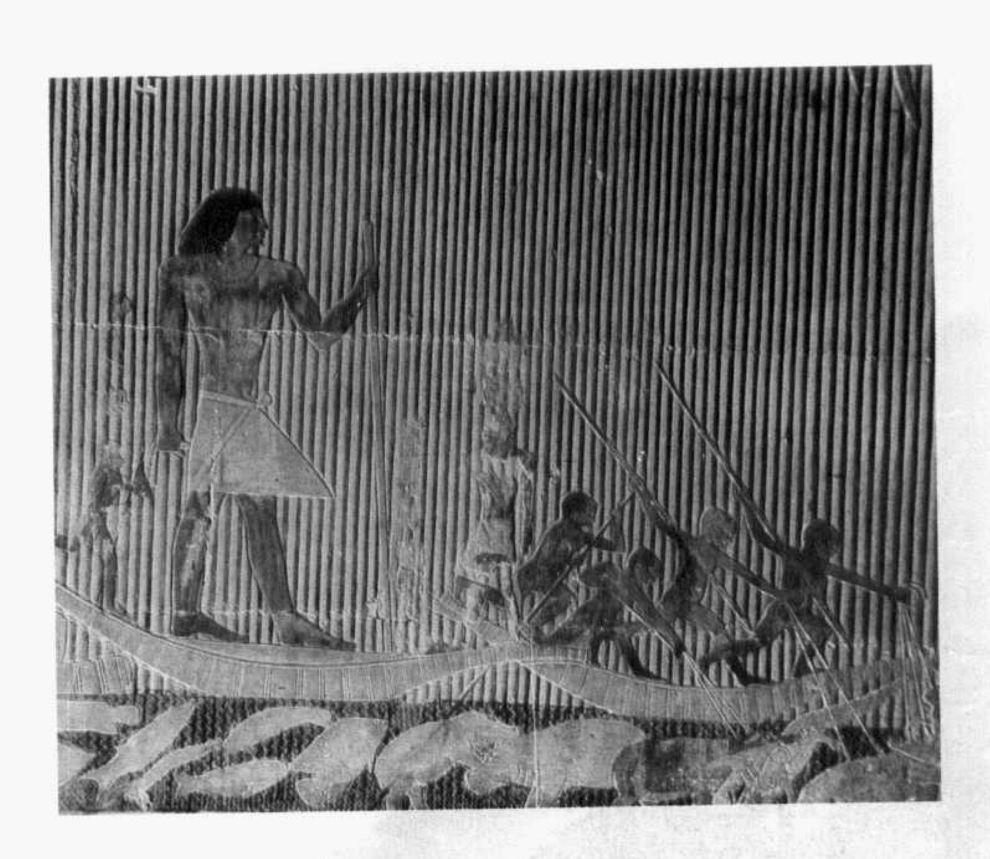
أولاً : فجر الضمير

إن قصة الحضارة المصرية ملحمةٌ شغلت من الزمن حيزاً لا يدانيه حيزٌ آخر على وجه الأرض . والحضارة منجزٌ عقلى تتبلور معالمها جيلاً بعد جيل من « مساق خِبرْى « يستر شد « بالقصد » العاقل . لقد كان اكتشاف النار خطوة جبارة على درب الحضارة ، كذلك كان الاهتداء إلى الزراعة . على أن ابتكار أبجدية يسجل بها ابن الإنسان فعله الإنسانى ولحفظه تراثا للأجيال من بعده يمثل تتويجاً لمضمون الحضارة . ومما يسجل لمصر والمصريين أنهم أول من إبتكروا هذه الصيغة العبقرية منذ ألوف السنين ، وعنهم نقلها الفينيقيون فاليونان ، حتى أصبح حوض البحر الأبيض المتوسط مدينا لمصر بهذا الفضل العظيم . والكتابة المصرية القديمة بخطوطها الثلاثة تباعاً من هيروغليفية وهيراطيقية وديموطيقية تتألف من حروف ساكنة ، وعلامات صورية للأشياء المحسوسة ، وعلامات ذات دلالة صوتية ، وأخرى ذات دلالات معنوية . وقد نقش الأجداد كتاباتهم إما على الحجر أو كتبوها على أوراق البردى وشقف الفخار والألواح الخشبية .

وهكذا نقشت الكلمة (Logos) ، وهى عند بعض الدارسين ترادف « العقل » . ولقد قدر المصريون للكلمة قدرها الحقيقى منذ أن أبدعوا فى نقشها ؛ فالكلمة عند مولدها تتزامن مع فكرة صامته . وهى أشبه ما تكون برحلة الروح ، وتوأم الفعل الذى يتجاوز حدود المكان والزمان . الكلمة هى الماضى والحاضر وإستشراف المستقبل أيضا ؛ هى ضمير الأمة وعقلها الجمعى . وهى أيضا أداة الغبطة وتبادل المشاعر الإنسانية النبيلة . والكلمة هى التى أقامت بحروفها قصور الحكمة ومتون الأهرام ومقطوعات الأسطورة وجداول الهندسة والفلك وأسرار الطب والتحنيط جميعاً !

تمتد مصر من الشمال إلى الجنوب على مساحة ١٠٣٠ كم بين خطى عرض ٣١° ، ٢٢° ؛ ومن الغرب إلى الشرق على مساحة ٩٦٠ كم بين خطى طول ٢٥° ، ٣٤° ؛ فى الركن الشمال الشرقى لقارة أفريقيا . ويحدها من الغرب الصحراء الليبية ، ومن الجنوب السودان ، ومن الشرق البحر الأحمر . أما شبه جزيرة سيناء فهى ضاربة فى قارة آسيا ؛ ومن الشمال يحدها البحر الأبيض المتوسط .

وتبلغ مساحة مصر الكلية مليونا ومائتى ألف كيلو متراً مربعا. والذى ينظر إلى خريطة مصر يجد نفسه أمام نبتة لنبات البردى؛ فساق النبات هى وادى النيل ، وزهرته هى الدلتا . ويقول الدكتور جمال حمدان فى ذلك : « سواء من حيث الموضع أو الموقع تمثل مصر مكاناً وسطاً : وسطاً بين خطوط العرض وبين المناطق الطبيعية وأقاليم الإنتاج ، وبين القارات والمحيطات ، وحتى بين الأجناس والسلالات والثقافات . وليس معنى هذا أننا أمة نصف ، ولكننا أمة وسط : أمة متعددة الجوانب ، متعددة الأبعاد والآفاق ، مما يثرى الشخصية الإقليمية والتاريخية ، ويبرز عبقرية المكان فيها » .



رحلة صيد أفراس النهر (الأسرة الخامسة)

ويتألف أهل مصر من شعب أصيل فى مصر (autochtonus) ؛ بمعنى أنه لم تفد إلى البلاد سلالات من مكان آخر ، وأما إحتمالات الإختلاط الهامة مع سلالات أفريقية أو أسيوية فهذه قد تمت فى الألف الرابعة قبل الميلاد ؛ أى قبل عصر الأسرات . وعن هذا التجانس السكانى يقول جمال حمدان (ومعه H. Vallois فى كتابه عن الأجناس البشرية) « أن ثمة من التماثيل الفرعونية من عصر الأهرامات حين كشفت فى القرن الماضى ، ما تعرف الفلاحون وعمال الحفائر على بعضها كشبيه ومماثل لبعض أفراد بينهم » .

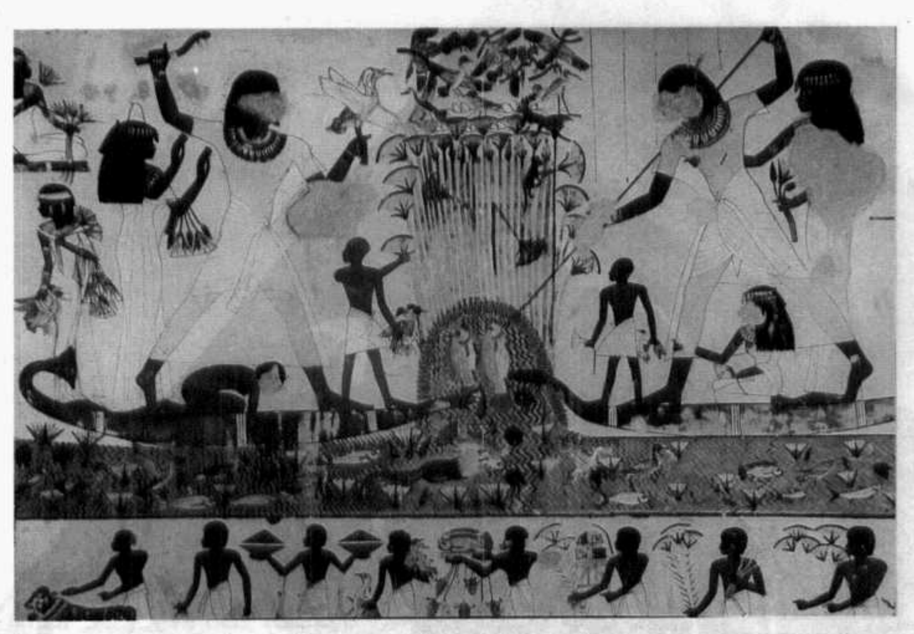
كان نهر النيل نهراً شرساً غضوباً قبل أن يروضه الإنسان المصرى القديم ؛ ففى وقت الفيضان كانت المياه تغمر البلاد وتدمر القرى والكفور وتملأ المنخفضات ، فى حين أن الدلتا ، وقد كانت فى الأصل تتشعب إلى سبعة أفرع - فقد كانت تغرق بمياه الفيضان ، تنتشر فيها الأحراش والمستنقعات . ولكن الإنسان المصرى لم يستسلم لهذا « الإله الكريم الغاضب حابى » ، فقدم له القرابين عله يترفق بالوادى - ثم راح بمعوله وعرق جبينه يعمل على ترويضه ، فرسم له مجراه وشق له القنوات وأقام لتهدئته السدود ، حتى إستقر آنساً مستأنساً كما نعرفه اليوم . وهكذا فإن مصر التى نعرفها ليست « هبة النيل » كما قال هيرودوت ، بقدر كونها هبة السواعد المصرية ، التى جففت الأحراش وطهرت المستنقعات وإجتثت الأشجار وطهرت مجرى النيل من أعشابه الطافية المختنقة وأفراس نهره وتماسيحه الشرسة ، حتى تحول الوادى إلى الأرض الطيبة الصالحة للزراعة والإستقرار فى أمان من الغد المجهول(*) .

ومن هذا يصل المؤرخ أرنولد توينبى إلى القول بأن الحضارة المصرية قد حققت ماحققت من إنجازات ومعجزات دون أن تتلمس فى دربها الطويل علاقات « بنوة » "Affiliation" لحضارات أخرى معاصرة أو مجاورة ، وهنا يكون التفرد السمة الكبرى للحضارة المصرية القديمة .

المصرى إذن - على حد تعبير جمال حمدان - مخلوق نهرى يضرب بجذوره فى طين الوادى ، أشبه ما يكون بزهرة اللوتس وليس بتمساح النيل : قريته هى وطنه مهما يشقى فيها ، ويشق عليه أن يهجر أرضه . ولذا فإن المصرى من قديم الأزل يكره « الغُربة » ، ويتعفف عما قد يتساقط من موائد « اللئام » على مر العصور . ومن أبرز الخصال الأخرى للحضارة المصرية صفة الإستمرارية ؛ فإن أنت نظرت أمامك أو من خلفك(*) » ترى

(*) Toynbee, A., A Study of History. London, 1962, Vol. I, p. 308 : "Each Foot of ground has been won by the Sweat of man's brow with difficulty from the swamp, until at last the wild plants and animals which once possessed it have been completely exterminated in it. The agricultural Egypt of Modern times is as much a gift of man as it is of the Nile.

(*) Fedden, R., The land of Egypt. London, 1939, p.8.

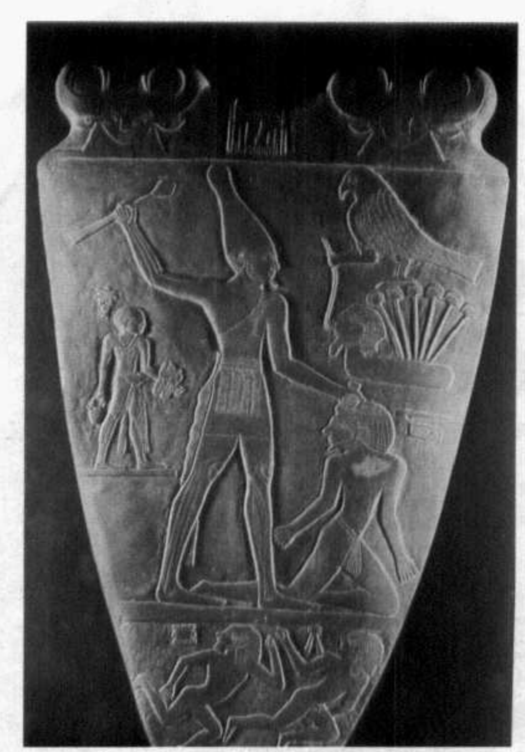


رحلة صيد نهرية (الأسرة ١٨/١٥٧٥ - ١٣٠٨ ق . م)

مصر القديمة بلا تحنيط ، وإنما هى محفوظة فى بلسم الشمس وفى تقاليد الشعب المصرى » . وإنك لتجد فى الوادى الربوة أو التل الواحد تعلوه بقايا معبد فرعونى ، فكنيسة قديمة ، ويتوجهما من علِ المسجد ، وكل ذلك فى قصيد سمح متناغم لاتجد له مثيلاً على وجه المعمورة .

ولنتوقف قليلاً عند لوح نارمر (نعرمر أو مينا) موحد الوجهين القبلى والبحرى من الأسرة الأولى (٣٠٠٠ - ٢٦٤٠ ق.م) .

تظهر على وجهى اللوح الربة حتحور (فى صورة البقرة) فى أربعة أماكن من أعلى إشارة إلى الأركان الأربعة للسماء . وتقف حتحور بأرجلها الأربعة لتوازن أركان الأرض الأربعة ، أما بطنها فيشير إلى السديم . ومن جهة الشرق نرى حورس الصقر الذهبى وهو رمز الشمس ، الذى ينبثق من جهة المشرق ميمماً شطر الغرب ، ليسكن فى جوف حتحور ، ليولد من جديد مع فجر اليوم التالى . وحتحور أيضا هى رمز الأمومة ، ومن هذه الصفة جاءت عباراتنا التى نرددها حتى اليوم من قبيل « الوطن الأم » .



لوحة نارمر (الأسرة الأولى ٣٠٠٠ ق . م)

أما الفرعون (برعو = البيت الكبير) الذي نراه على اللوح ، فمع أنه يمثل الملك نارمر التاريخى المحدد بزمن واضح من عصر الأسرات الأولى ، إلا أنه فى نفس الوقت يفصح عن فكرة الإستمرارية والبقاء والنظام والطريق الصحيح ، وذلك بفعل « ماعت » التى تشد من أزر حامل التاج وأزر من يأتى من بعده ، وبذلك يصبح الفرعون أداة تتحقق من خلاله « ماعت » نفسها وهى رمز العدالة والحق . ومؤدى الرسالة فى هذا اللوح أن توحيد الوجهين على يد الملك مينا ليس مجرد حدث عرضى لحملة عسكرية يقودها إبن الجنوب ليضم إلى الأمة أبناء الشمال ، وإنما الدلالة الحقة هى تأكيد « نسق الأمور وتجليتها لقدرٍ مقدرٍ سلفا » وفق نواميس « ماعت » . ومن هنا كان الشعب المصرى ينظر إلى الفرعون بأنه « قدرهم » وراعيهم ، وهو ينطق عن سلطان (حو=hu) من فمه ، ويتصرف عن فهم (سيا= Sia) من قلبه .

أما صورة مينا المزدان رأسه بالتاج الأبيض الطويل ، رافعاً صولجانه لينقض به على كبير جماعات أحراش الدلتا ، فهى ترمز فيما ترمز إلى إنتصار حورس على حبائل عمه الشرير ست قاتل أخيه الطيب أوزوريس .



الصقر حورس والأفعى المقدسة (الأسرة الأولى)

وفى خلفية اللوح نلمح رمز الإقليم السابع من أقاليم الدلتا ، إشارة إلى جماعات الصيادين فى تلك الأحراش ، حول عاصمتهم ابطو (بوتو = تل الفراعين قرب دسوق الحالية) ، كما نرى ودجت (Wadjet) حية الكوبرا وهى الافعى المقدسة التى تشير إلى قوة « ماعت » ، والتى تعمل على حماية الملك من شر أعداءه(*) .

ومما يسجل باعتزاز للحضارة المصرية القديمة أنها ، دونا عن سائر الحضارات المعاصرة والتى تلت بعدها ، لم تعرف تقديم البشر كأضحيات للآلهة . ولقد إبتدع الكهنة المصريون طقوساً ومراسيم عوضا عن هذه الأضحيات ، وذلك عند تتويج فرعون جديد أو الإحتفال بعيد جلوسه على العرش : فقبل يوم الاحتفال المهيب تشعل المشاعل خمسة أيام متتالية إشارةً إلى إحراق القديم والتمهيد لأمر جديد . ويبدأ الإحتفال دوماً فى الأيام الخمسة الأولى فى الشهر الأول لموسم الفيضان ، وذلك عندما تخضر الأرض ويزدهر الزرع وتتفتح الأزهار إيذانا « بالميلاد الجديد » ، بعد فترة موات هى غياب فيضان النيل الكريم . ولهذه المناسبة الجليلة ، تشيد البنايات وتبخر بالبخور وتقام بها الصلوات ، ويقام بهو للعرش وفناء واسع لمرور المواكب ، ثم محرابُ ينسحب إليه

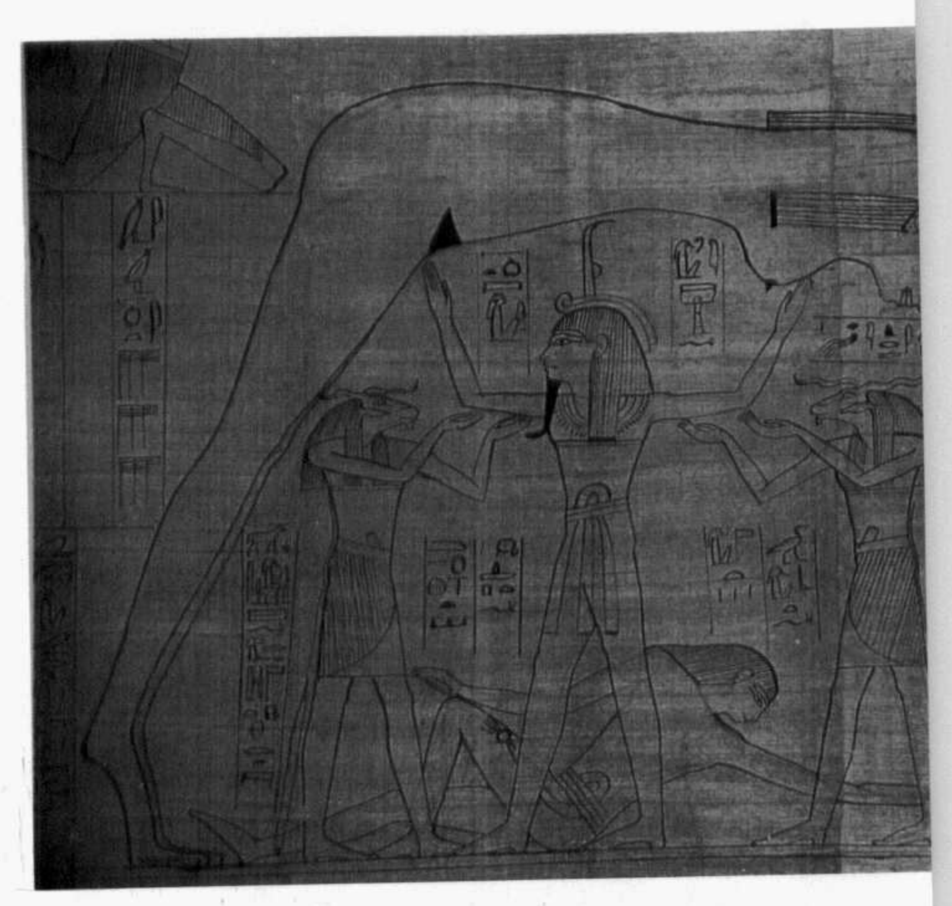
(*) Campbeil, J., Oriental Mythology. London, 1962, pp. 49 ff.

الفرعون ليبدل حلته القديمة ويرتدى الحلة الجديدة . وراعية هذا الطقس هى الربة حتحور . ولذا فإن الملك يظهر مرتدياً منطقة تزدان بوجوه أربعة لحتحور ، تسبقه مواكب أعلامه الأربعة ، ليتقدم من معبد إلى آخر ليوفى التقدمات للآلهة جميعاً .

ثم يدخل الكهنة ليعلنوا الولاء للملك أمام العرش ، ويحمل كل منهم رمز واحد من الأرباب . وينطلق البوق مؤذنا باقتراب اللحظة الكبرى ، فيهم الملك قبالة المذبح ، ليتقدمه وب واوت (فاتح الطريق الذى كان يرافق رع فى رحلته فى العالم السفلى ويصور فى شكل الذئب) ، ويبدأ الملك بتكريس العلم ، ثم يلج المحراب متواريا عن الأنظار لمدة معينة . ثم يظهر الملك من جديد متمنطقاً بحزام حتحور ، ممسكاً بيده اليمنى صولجانه المقوس ، وبيده اليسرى يحمل لفافة من البردى ، هى « الوصية » التى ينشرها أمام الحضور معلنا أنه قد تسلمها من أبيه أوزوريس سيد عالم الموتى فى حضور جب سيد الأرض ، ثم يقول : « وبعدها طفت الأرض كلها ولمست أركانها الأربعة - . وها أنذا أعود لكم من جديد »(*).

تمثال لامرأة
(الأسرة الرابعة ٢٦٨٠ - ٢٥٦٩ ق . م)

(*) Campbeil, Op. cit., p. 76.



شو (الهواء) يرفع بيديه القويتين جدنوت (السماء) (الأسرة ٢١/١١٠٢ - ٩٥٢ ق . م)

ويمثل حفل التتويج وكذا الإحتفال بعيد جلوس الفرعون فخامة وأبهة قلما عرف التاريخ مثلها ، وقد أطلق القدماء على هذا الحفل إسم قَدَمْ الخيرّ على الأمة المصرية . ثم يقوم وجهاء المملكة بعد ذلك بحمل الفرعون على محفته فوق أكتافهم متجهين صوب محراب حورس . وهناك يقدم له الكاهن الأكبر عصا الرعاية وصولجان الصائح العنام . وتنطلق الأناشيد الدينية من حناجر الكهنة والمرتلين ، ثم يقوم الكاهن الأكبر بتسليم الملك القوس الملكية ليطلق منها رمحاً على كل ركن من الأركان الأربعة للجهات الأصلية ، ويتم تتويجه أمام كل ركن من هذه الأركان نفسها . وفى نهاية المطاف يتقدم الفرعون نحو بهو الآباء الخالدين ليقدم علامات الولاء والوفاء وهو يحمل الأعلام الملكية الأربعة .

ولعل أجمل ما أعطته الحضارة المصرية القديمة للعالم عقيدة الحياة الآخرة بعد الموت ، وبهذا تكون مصر هى أرض الإيمان يوم أن كان العالم من حولها يغط فى البربرية والظلام الروحى :

تطالعنا متون الأهرام(*) ، والتى ترجع إلى الألف الثالثة قبل الميلاد ، عن سيد منف الآله بتاح وقصة خلقه لتاسوع (Ennead) آتوم ، المؤلف من آتوم نفسه ، وشو (سيد الهواء) وزوجته تفنوت (الندى) ؛ جب (الأرض) وزوجته نوت (السماء) ؛ أوزوريس وزوجته إيزيس ؛ ست وزوجته نفتيس . ويفاخر آتوم بأنه هو الذى سوى الأرباب بمشيئة بتاح . ويقدم العقل المصرى صورة رائعة لقبة السماء : فالذى حدث - كما تقول الأسطورة - أن شو (الهواء) قام بفصل نوت (السماء) عن زوجها جب (الأرض) ، ثم وقف حائلاً بين الإثنين برفع الطبقات العليا بيدية القويتين . ولكن جب كان يتحرق شوقاً لزوجته ، فهاج غضباً وحنينا ، وهكذا ولدت التلال والجبال . أما نوت التى أضناها الحنين هى أيضا إلى زوجها فقد رفعت إليها عدداً من الربات وحولتهن إلى نجوم ترصع بها جسدها وتتلألأ ليلاً ، «ولكأن السماء تغازل الأرض» ! وتبدو السماء (نوت) فى واحدة من اللوحات وقد تقوست أطرافها عند طرفى الأرض . أما القمر فقد كان من فعل رع الذى طلب إلى «تحوت» أن يأخذ مكانه فى السماء مضيئاً ، بينما مضى رع ليشرق على الإبرار فى العالم السفلى . ومن أروع ما قيل فى الآدب المصرى القديم عن البشر أن الآلهة قد خلقتهم من دموعها(**) .

ولقد زود المبدع بتاح الأرباب بالروح الدافقة (كا = Ka) ، وجعل من القلب موضعا للفكر الخلاق ، ومن اللسان أداة لنطق الكلمة ، وهى التى منها إنبثقت كوكبة العذارى من وصيفات الروح ليسهرن على الخصال الحميدة من القوة إلى الذكاء إلى رباطة الجأش وصولاً إلى الإبداع والتذوق الجمالى .

(*) Mercer, S. A. B., The Pyramid Texts. New york, 1952, Vol. I, pp. 206 ff.

(**) Lalouette, C., la Literature Egyptienne. Paris, 1981:

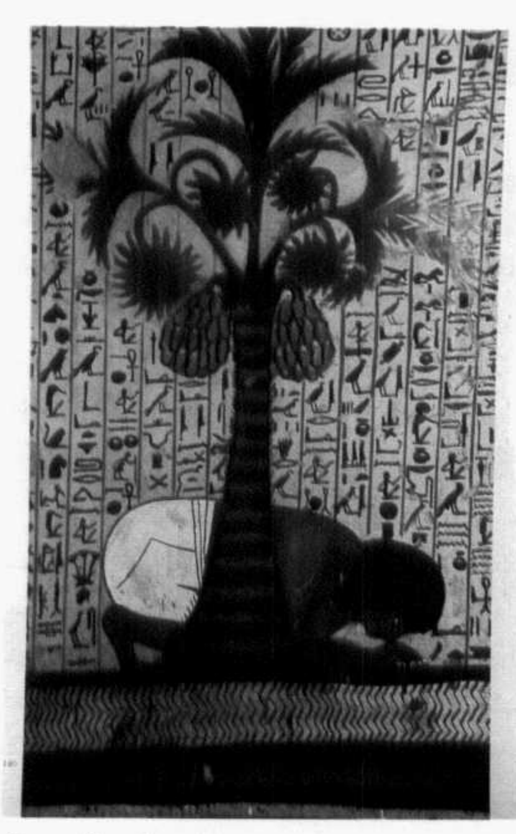
ترجمة ماهر جويجاتى ومراجعة د. طاهر عبد الحكيم . دار الفكر للدراسات والنشر والتوزيع . القاهرة ١٩٩٢ ، ص ٧٥ ، ٧٦

ويصور بتاح فى الأسطورة فى هيئة عجل أسود هو عجل أبيس (Apis) المقدس ، الذى قيل أنه ولد بفعل شعاع القمر ، والذى كان ينحر عندما يبلغ خمسة وعشرين عاماً ثم يحنط ويدفن فى سقارة فى قبر محفور فى الصخر وهو المعروف بإسم «سيرابيوم» . وفى نفس اللحظة التى يدفن فيها العجل أپيس يتم مولد عجل جديد يتعرفون عليه من علامات خاصة وهى شامة بيضاء على رقبته ومؤخرته تشبه جناحى الصقر ، ومن عقدة تشبه الجعران أسفل لسانه . ومؤدى هذا كله عند القدامى أن طقس ذبح العجل أپيس يمثل نوعا من الفداء للفرعون ، وأيضا كعلامة لمولد فرعون جديد(*) .

هذا وقد كانت لإله الشمس رع منزلة خاصة فى ضمائر المصريين ، وإعتقدوا أنه قد إنبثق منذ البدء من المحيط (نون) ، وبأنه يولد كل صباح بعد رحلة الليل فى العالم السفلى ، ليشرق فى السماء بعد أن يغتسل فى حقول الحياة (إيارو) . وقد صوره القدامى فى رحلته نهاراً وليلاً فى مركبين أو زورقين ، حيث يوجد نفر من الملاحين الأرباب لحماية رع مما قد يعرض له فى الرحلتين من سم الأفاعى الشريرة . وتمثل المصريون فى شروق الشمس وغروبها ما تمثلوه فى فيضان النيل وإنحساره ، ووجدوا فى الحالين ضرباً من ضروب الصراع بين الحياة والموت ، وان كانت الغلبة فى يقينهم فى نهاية الأمر للحياة وللخير . وقدماء المصريين هم أول من آمنوا بالحياة بعد الموت فى العالم الآخر ، وما يرتبط مع ذلك من بعث وحساب يوم الدينونة . وهكذا سبق المصريون شعوب الأرض جميعاً فى ربط الموت بقيمة أخلاقية هى كشف الحساب أمام ميزان العدالة . ولقد اعتقد المصريون القدماء أن الروح (پاييث) عندما تفارق الجسد فإنها تلحق بموكب الشمس . وفى رحلة صعودها للأعالى تلقى العديد من الأهوال ، ولكن رع المشرق أبداً يرشد مسارها إلى سواء السبيل(**) .

(*) Campbeil, Op. cit., pp. 89 ff.

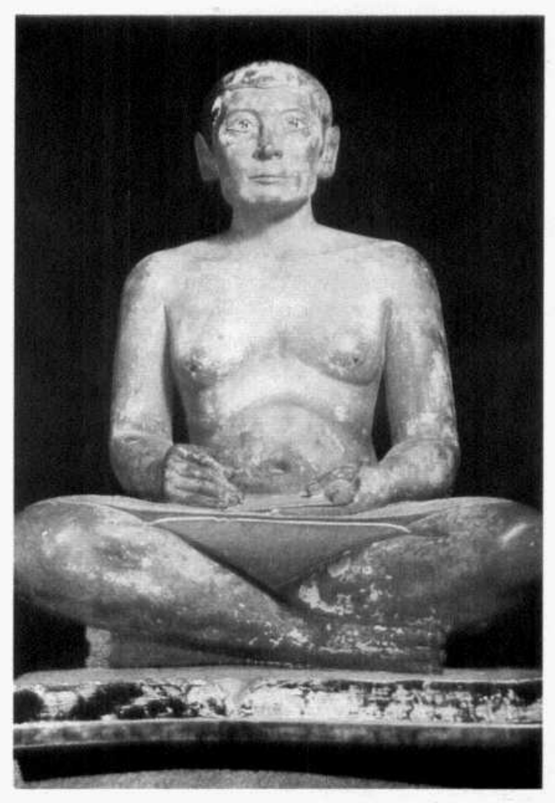
(**) Petrie, F., Religion and Conscience, p. 12 : "Egyptian religion has left us the most ample remains in the ancient world."



المتوفى يشرب من ماء الحياة مستظلا بشجرة الدوم (الأسرة ٢٠)

والأرواح صنفان : الصالح والطالح . أما الصالح من الأرواح فطريقه إلى منازل فردوس النعيم ؛ وأما الطالح منها فماله إلا الجحيم . وفى المحاكمة وعرض كشف الحساب نجد أوزوريس جالساً على عرشة ومن خلفه الربتين ايزيس ونفتيس ، وإلى جانب من جوانب المحكمة يصطف الآلهة التسعة (تاسوع عين شمس) وعلى رأسهم إله الشمس ، وهم الذين ينطقون بالحكم آخر الأمر . وفى وسط القاعه موازين رع ألتى بها توزن الأعمال ، وقد أمسك أنوبيس بهيئته الآدمية ورأس إبن آوى بهذه الموازين . ومن خلف أنوبيس يقف تحوتى كاتب الأرباب وفى يده القرطاس والقلم . ومن وراء تحوتى يطل حيوان مخيف له رأس تمساح وصدر أسد وعجز فرس النهر ، وهو فى حال توثب للفتك بالخطاة الذين تثبت إدانتهم . وإلى جانب الموازين تلمح صورة ربتى الميلاد ، تشرفان على مآل الروح مثلما اشرفتا عليها حين ولدت فى هذا العالم . ومن وراء الجميع نرى «حو» سيد الفم ، و «سيا» سيد القلب .

الروح التى تدينها محكمة العدالة لاتملك إلا أن تحوم فى «المطهر» ولكنها تتذكر مرارة فساد أعمالها ، وتتوجس من هول الجحيم . وأما الجحيم فهو الظلام الرهيب بكهوفه ودهاليزه المعتمة ، وهو فى صورة أمعاء الربة نوت حيث يحشر أعداء النور واشرار الظلام . وهم لا يحرمون من إشراقة رع فحسب ، وإنما تتلقفهم الأرواح السفلية بصنوف من العذاب على آثامهم التى اقترفوها .



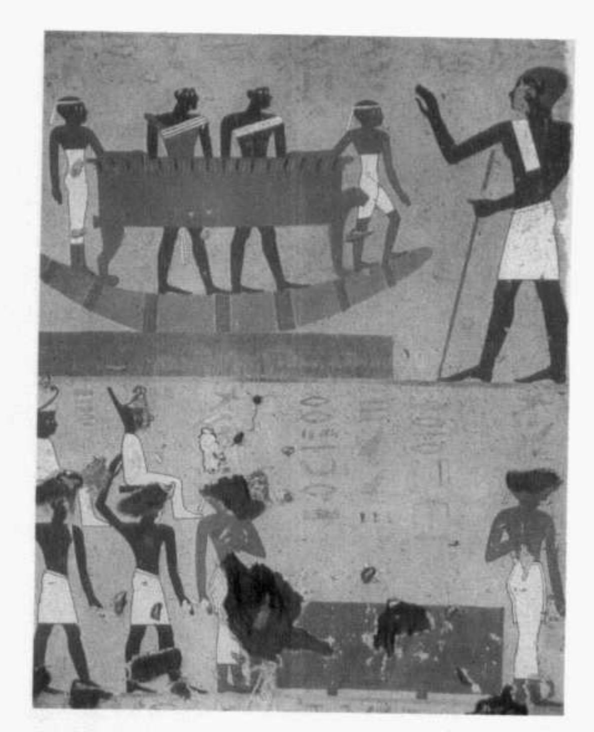
الكاتب المصرى القديم (الأسرة الخامسة ٢٥٦٠-٢٤٢٠ ق . م)

ولقد لاحظ العلماء وأولهم فرانسوا شامبليون نفسه ، أن هذه الصورة هى الأنموذج الأصل للجحيم كما صوره الشاعر الإيطالى «دانتى ألليجبيرى» فى الكوميديا الإلهية مع بدايات عصر النهضة فى أوربا .

وفى الجحيم يكون القصاص : فالبعض يوثق فى الأعمدة وتنهال عليهم ضربات الحراس بالسيوف على الجرم الذى إقترفوه على الأرض ؛ والبعض الآخر يعلقون وقد دليت رؤوسهم منكسة إلى أسفل ؛ فى حين أن نفراً آخر من الخطاة يسيرون فى خطى ثقيلة كل منهم يجر قلبه على الأرض . ومن علٍ يجلجل صوت رع مخاطباً شرذمة الأشرار :



حاملات القرابين
(الدولة الوسطى
٢٠٥٠ - ١٧٧٨ ق.م)



نقل تابوت وأدوات المتوفى (الأسرة ١٢/ ٢٠٥٠-١٧٧٨ ق.م)

« أيها السائرون بلا روح فى دار الأحزان
رؤوسكم منكسةً من ثقل وهوان
يا أعداء أوزير الطيب ! هذا يوم الميزان
إلى جهنم - عنى - أغربوا فيها فى هوان
هوذا وادى البكاء - هاك صرير الأسنان(*) .

أما الروح الطاهرة فإنها تدلى باعترافاتها فى حضرة الجميع ورقابة « ماعت » العدالة بالآتى :

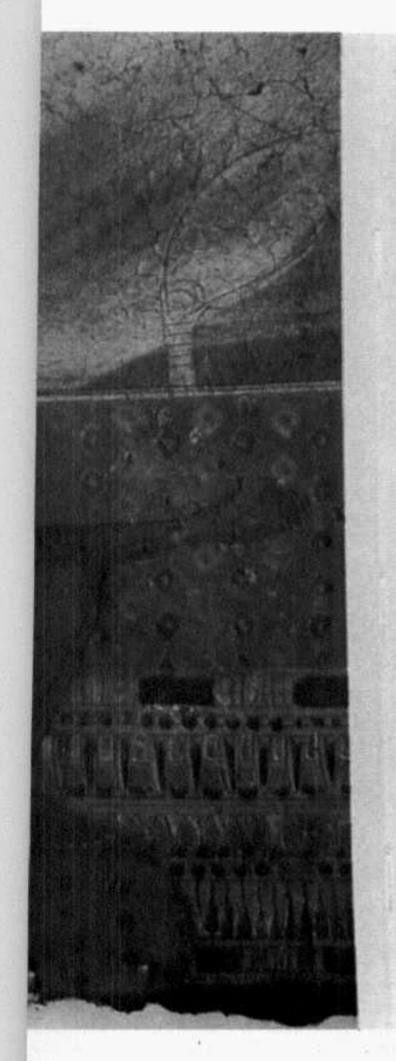
« ولاءً للحق وللعدالة
ها أنذا أمثل فى المقام الطاهر
فى رحاب الأرباب المقدسين

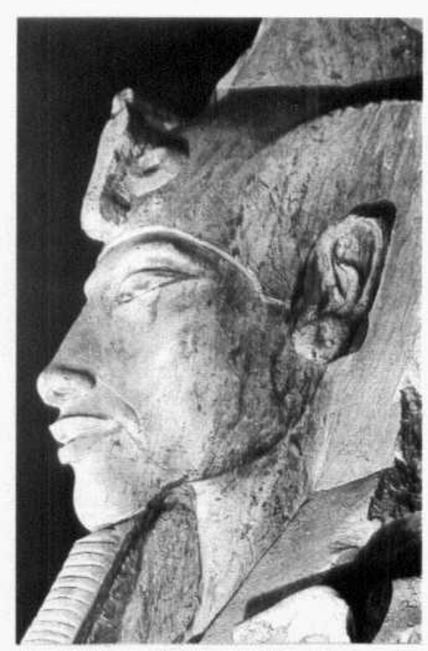
(*) Budge. Wallis. The Book of the Dead, Nu Papyri, No. 10477, Sheet 22.
(الترجمة بتصرف الكاتب)



وعـــينـاى تـتـــمـلـيـــان بـالـبـــهــــاء النورانى
أنـا الآن أعـــايـن الحق فى كـــمـــــالـه
ولســـانـى يلـهج بـاسم مــــاعت الجــمـــيل
جـــئـت إلى هنـا لأبـوح بـقــــولـة الحق
من أجل الحق كــــابدت ضـــد الشـــرور
يداى لم تـقــتـرفــا إثمــا تأذى له أنسٌ من البـشــر
أنا مــــا تجــبــرت يومـــا عـلى أهـل بيـــتى
ولا جـــــرت خطاى ريح فـــســـــــاد
عـلى مـكـان مـــــــقـــــــدس
مـــا عـــرجت يومـــاً على مـــجـالس الســـوء
ولاخطت قـــدمـــاى إلى أوكـــار الادنيـــاء
أنـا مـــا أرهـقت أجــيـــراً فى عــــمـل
ولا جـــرح لســـانى كــرامـــة خـــدم
راحـــتـــاى لم تـلـــوثـا بــدم مـــهـــراق
ولا كنت للجـرم طرفـاً من قـريب أو بعــيــد
حــفظتُ على طـهـــارة بيـــوت الـصـــلاة
قـــصـــبـــة واحـــدة لم أقـــتـطع إلى أرضى
مـــــا طـفـــــفـت كــــيــــلا
ولا أنقـــصـت فى كـــفـــــة الميـــزان
مــــاكـــــدرتُ عـلـى رضـــيـع
يأنـس إلى صـــدر أمـــه فى أمــــان
ولا عـــكــرت يـــومـــــــــاً
عـلى الســـائمـــة أو الرعُـــيــــان
ها أنـذا أعلن فى مـحــضـر الآلـهـة طهـرى
نـقـىٌ أنـــا .. نـقـى وطـهـــــــور
لقـــد عـــاينتُ نـور رع وقت تمـامـــه
وتنســـمتٌ من نســيم ســيـدة الـريح الطـاهرة
أيـتـــهـــا الآلـهـــة العـــادلة
رحـــمـــةً بى فى رحـــاب مـــعـــات »[*]

(*) Budge, Op. Cit., idem.





أمنحوتب الرابع (أختاتون ١٣٦٧ - ١٣٥٠ ق . م)

هذا ولقد أذهلت شخصية الفرعون الفيلسوف امنحوتب الرابع (اخناتون) (١٣٦٧ - ١٣٥٠ ق.م) كل العلماء والدارسين : فلقد كان أميراً مبدعا ومصلحاً دينيا رائداً ؛ ولم يكن اخناتون فى صباه شابا ماجناً كما هو الحال مع كل الامراء ، وإنما كان يمضى أوقاته فى مطارحة قضايا الكون واللاهوت مع أمه «تى» وزوجته الجميلة نفرتيتى . وكان إنسانا بسيطاً متواضع القلب ، حكم مصر وهو فى السابعة عشرة من عمره . وقد أقدم على ثورة دينية كبرى أثارت إعجاب المعاصرين والمحدثين على حد سواء ؛ فلقد عقد العزم على التخلص من نفوذ كهنة آمون الذين زاغت عيونهم فباتوا من كبار أهل الأقطاع فى العاصمة طيبة . وراح الفتى العبقرى يتأمل فى عبادة الشمس القديمة حتى وصل إلى إقتناع أكيد ؛ ألا يتعبد إلا لإله واحد استلهمه من قرص الشمس الذى يرسل بأشعته على الكون ليبدد الظلام ويمن على من فى الكون وما فى الكون بالحياة والنور

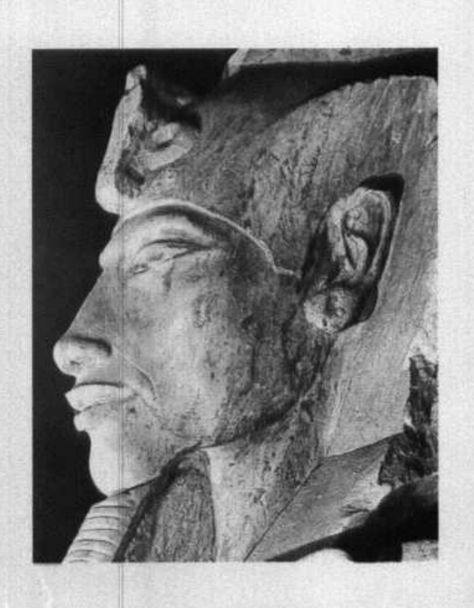


أبنـــاء أخـتـــاتـــون

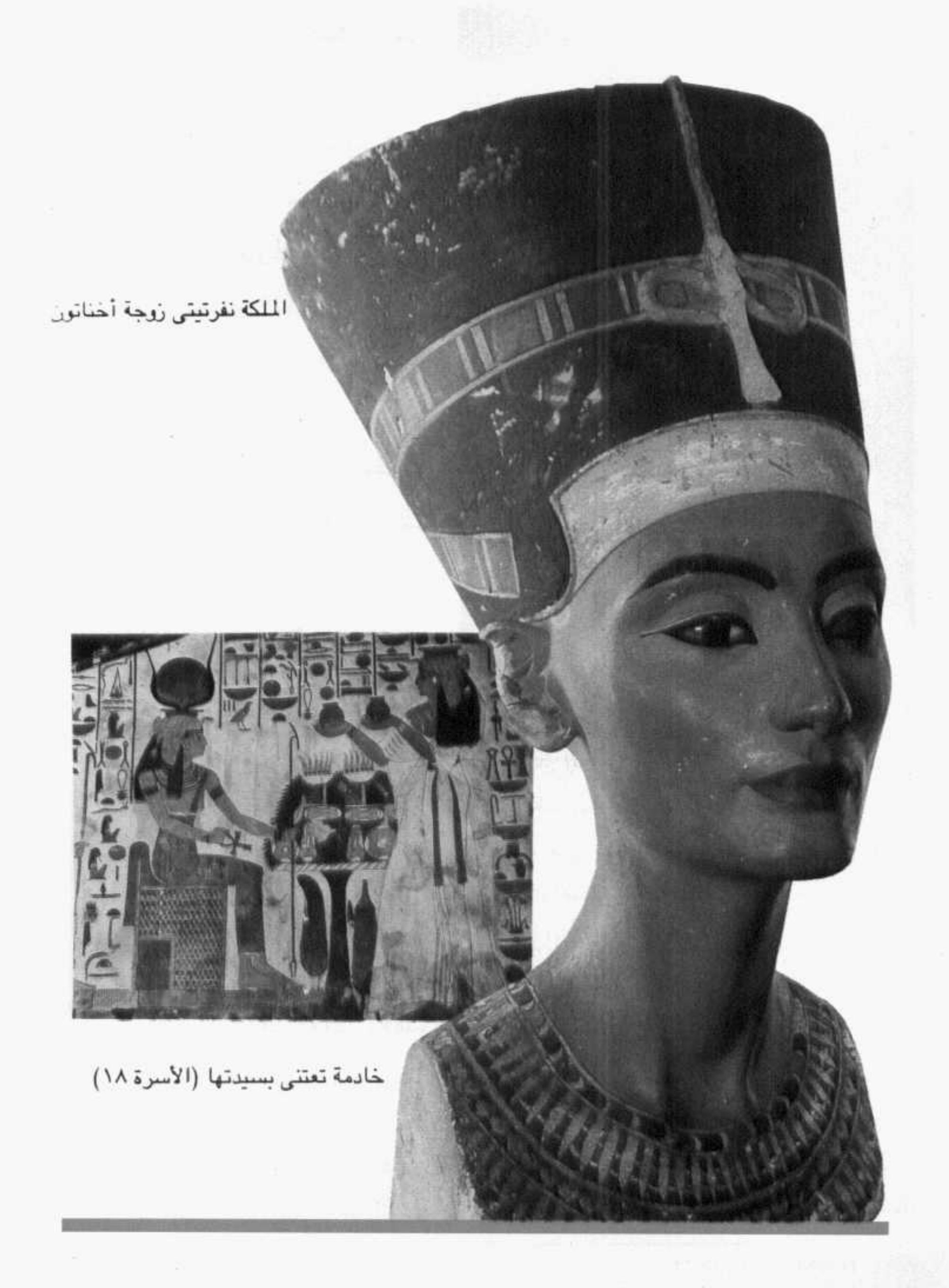
والخير العميم ، « ولم يرمز إلى المعبود الجديد بغير هذه الصورة ولم يتخذ له صنما ولم يجعل له زوجة أو ولداً »(*) .

ثم اختار اخناتون لنفسه عاصمة جديدة هى تل العمارنة ، متباعداً بهذا عن مكائد الأشرار ومنغصات الماضى ، كى يحيا ومريدوه حياة البساطة والعفة . ولايتسع المقام فى هذا السياق إلا لبعض الفقرات من أنشودة اخناتون التى عثر عليها فى مقبرة « أى » المشرف على جياد اخناتون :

(*) تاريخ مصر القديمة (ضمن موسوعة تاريخ مصر عبر العصور) . الهيئة المصرية العامة للكتاب . القاهرة ١٩٩٧ ، ص ٢٢٨ - ٢٢٩



« أنت تشـــرق فـى بهـــاء
فى أفـق الســـمـــاء
آتـــون الحـــــى !
أنت فى أســارير وجــوه البـشـر
وان كــان جوهرك خـفـيا على البصر
أنت تـهب الحـيــاة للجنين
وترضـعـه فى جـوف الرحم الأمين
أنت تخـرج صـغـار الطيـر
من بـيـضـتـهـا عـجـبـا
وتـهب الحـيـاة روحـاً
هى نـسـمـتـهـا
أنت تـضع كل نفس فى مـوضـعـهـا
وتمكن لـكل زاده فى حـسـبـان
الأقــوام فى الكـون كــثـيـرة
والألسن بلهـجـاتهـا غـزيرة
ولـكـنـك أنـت
مـيـزت بين أوطـان وأوطـان
ورغم ذلك فــأنت المشـرق أبداً
تـنـعـم بـالـنور والـدفء فى كـل مكـان
العـيـون مـفـتـونة بنورك المهيب
والقـلـوب مـعـلـقـة بك
حـتى بعـد المغـيب
بإشـراقـك يـفـلـح الـنـاس
يعـمـلون من أجل مـصـر
أنت تعـيـمهم من أجل أبنك الحـبيب
سـيـد الأرضين الـذى يحـيـا بـالحق
نفـر - حـنـبـرو - رع
مع زوجـه العظمى التى يحـبـهـا
سـيـدة الأرض نفـر - نفـرو آتون
(نـفـرتـيـتـى)
ألا فلتـشـرق مجـدداً أبداً
بهـاء نـورك إلى أبـد الآبدين » !



الملكة نفرتيتى زوجة أخناتون

خادمة تعتنى بسيدتها (الأسرة ١٨)

إن العظمـة الحـقـة فى
شـخص اخناتون تكمن فى
صـدق نواياه ، إذ ملك هذا
الفـرعـون من الشـجـاعـة
الأخلاقـيـة قدراً زاح به عن
صـدر مـصـر الكثـيـر من
هـمـوم المـاضى . ولم تكن
عـقـيدتـه « الأتونيـة » مـجـرد
نظرية فى الطبيعة أو الكون
بل يرى الدارسون فيها ما
يرقى إلى مشارف التوحيد
الباكر فى التاريخ البعيد !



توت عنخ آمون (١٣٤٧-١٣٣٩ ق . م)

إن هذه الدلائل جميعاً تشير إلى «ضمير» مصرى متوقد يقظ ، الأمر الذى جعل العالم فلندرز بترى يسجل شهادته التالية :

« على الجميع أن يعترفوا بأن قدماء المصرين كانوا يملكون ضميراً حياً لم تعرفه شعوب الدنيا فى التاريخ القديمة(*) . ونجد هذا الضمير فى العديد من متروكات مصر القديمة : فى مأثورات بتاح حتب (من الأسرة الخامسة) ؛ وانشودة عازف القيثارة (من الأسرة الحادية عشر) ؛ ونصائح امنمحات (من الأسرة الثانية عشرة) ؛ وحكم وأمثال آنى (من الأسرة التاسعة عشرة) ؛ وغيرها كثير !

إن ما نعنيه بالضمير المصرى هو ما يميز الحضارة من البربرية والوحشية . والضمير أيضا هو فكرة المصرى عن الحق والباطل ، والخير والشر دون لبس أو بُهتان . والحق أن المثل الأخلاقية النبيلة عند الأجداد كانت تلك التى تتسق مع الصالح

(*) Petrie, F., Op. cit., p. 86 : "It has long been recognized that the Egyptians had a much more organised conscience than that of most other nations of early times".



كرسى العرش الملكى لتوت عنخ آمون

العام للجماعة ككل ، ولم تكن بحال مقصورة على إنسان فرد ولو كان الفرعون نفسه ؛ كل هذا فى تناغم شمل مخلوقات الله سبحانه وتعالى فى البر والبحر . وتلكم هى «السماحة» المصرية التى لاينكرها حتى الجاحد لقد فطن الآباء القدامى إلى أن كل نزوة فردية أنانية مقدرٌ لها مع مغيب الشمس أن تتحطم على صخرة الأنانية العقيمة . وعلى هذا فإن القيم والمثل العليا ، قولاً وفعلاً ، هى التى تعود بالخير على المجموع دون تمايز ، وهى التى يكتب لها البقاء وتتوارثها الأجيال نبراسا لها على مدار السنين . إن الصالح العام ، كما صورته لاهوتيات وآداب مصر منذ الألف الرابعة قبل الميلاد ، هو العنصر الانتقائى للعقل ، الذى يترجم إلى الكلمة (Logos) ، ثم إلى فعل إنسانى يضمن لكل ما هو خيرٌ ونافع دفعة البقاء . وإن هذا ، دون غيره ، هو الذى يغرس فى وجدان الفرد والجماعة نبض الضمير الحى !

لقد تمكن علماء المصريات من جمع العديد من النصوص المصرية القديمة يغطى محتواها السمات الشخصية للإنسان الفرد ؛ والاحتياجات المادية والروحية للبشر ؛ والواجبات الأسرية على الزوج والزوجة والأبناء ؛ وعلاقة الأنا بالآخر ؛ والموقف الحانى من ممالك الحيوان والنبات والطير ؛ والعلاقات الوظيفية بالرؤساء

والمرؤسين ؛ ثم واجبات البشر قبالة الآلهة ؛ وهى جميعا تنطق عن ضمير مصرى حى جدير بكل التقدير والأعجاب :

من الحكم التى تصلح دستوراً لكل حين قولهم : « لاتدع قلبك ييأس أمام ضعف بشرتيك ، فتهزمك الهموم ... لئن كنت طيباً يراك الناس فى حلل الطيبة - الطريق المستقيم هو أقصر المسافات إلى القصد النبيل - الخيرون فى وقت الرخاء لايهتزون فى الأوقات العُجاف - تجنب صحبة الزحام لئلا يمُضغ اسمك مع سوءاتهم - الكذب يهلك صاحبه فى آخر النهار - الأحمق ليس له من دواء - استخدم عقلك قبل أن تنطق بقرار خطير - لا تدع لسانك ينزلق طويلا - إذا تصايح جمعٌ وأنت بينهم فحاذر أن تصيبك حُمى الجماعة ... ترأف فى لفظك فبعض القول جارح كنصل السكين - اهرب من مجالس النميمه والنمامين فهى توغر الصدور .. » .

ومن أمثال الحكيم آنى نطالع الآتى :

« لا تغترنَ بعلمك ، وترفق ببسطاء العقول ولا تزدرينهُم - إن كنت قد تعلمت شيئاً فأين ما تعرفه من المعرفة الحقة ؟ - كل يوم فى الحياة يحمل لنا جديداً - ليس هنالك من أمانٍ فى طبع الأيام .. »

والعجيب فى الأمر أن هذا الحكيم آنى قد تغلغل ببصيرته وحدسه فى عمق النفس الإنسانية فأفصح فى حكمه عما كشف عنه علماء النفس فى القرن العشرين ، فهو يقول :

« إن دواخل المرء اشبه ما تكون بمخزن الغلال الذى يزدحم بصنوف وصفوف من الخزين - إختر لمخزنك الوزنات الصالحة حتى لاتفسد غلالك وحنطتك . أنطق دوما بالحسنى بعد أناة ، فلئن أفلت الزمام خرجت من مخزنك الأهوال والمخازى . إن الرد الخشن كوقع العصا على رأس السائل المسكين . لسانك حصانك إن لم تصنه ما صانك(*) .

(*) Petrie, op. cit., loc. cit. : "The ruin of a man is his tongue.."

وعن حقيقة الموت يقول الحكيم آنى :

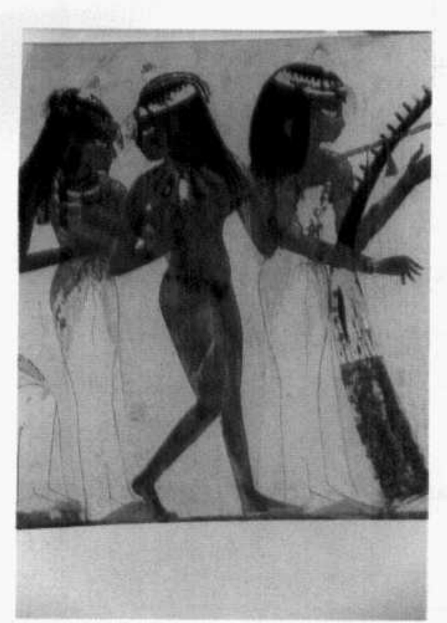
«ضع هذا نصب عينيك : عندما تكتمل أيامك على هذه الأرض . تكون قد أقمت لك مقاماً فى الدار الآخرة فى وادى الراقدين . إنك يوماً سوف ترحل إلى أحضان الأرباب . ومن يؤمن بهذا المصير لن تأخذه الفجأة بغفلتها ، حتى إذا ما وفد رسول الموت وجدك مستعداً لتلبية النداء . ولن يكون هنالك متسعٌ للسؤال ، فالموت هو توأم الفجاءة ؛ يقبض على روح الرضع الصغار مثلما يقتطف من شاخت بهم عشرات السنين » . !

أما بتاح حُتبْ فهو يسدى نصيحة غالية لسواء النفس وطيب المعاشرة حيث يقول :

« إن من يشتعل نهاره بالطمع والجشع يجنى عند الغروب حصاداً من الأسى - ومن يشغل باله بالمتعة يعود آخر الوقت إلى بيته خالى الوفاض - وأما من ينصاع إلى نداء الضمير فهو الرابح السعيد - إن الرجل العاقل يكفل بيته ويحب زوجته كما يليق ، يوفر لها طعامها ويكسو ظهرها ، ويضمن لها العلاج ، ويدخل على قلبها السرور . إن الزوجة كالحقل يعود عليك بحصاد جميل لو أنك عرفت كيف تفلحه - لا تستبدنَّ بزوجتك لأنها أضعف منك ، بل كن لها المعين والرفيق . إن دخلت داراً فاحفظ حرمتها ، ولا تبتذل صداقة الجيران - لا تكن عبداً لشهوة ، ولا تجعل امرأة غريبة تتربع على قلبك - لا تدخل المرارة على قلب والديك ، بل بلْل ريقهما بالماء عند الطلب ، وتذكر الأيام فبمثل ما تكيل لهما يكال لك من بعدٍ مع أبنائك ... خذ لك زوجة وأنت فى صدر شبابك حتى تعطيك نسلا قوياً تفخر بهم ويصبحون لك عونا على الطريق - عامل أبناءك بالحسنى ، ولاتدفع متمرداً منهم إلى الاغتراب والشتات ... خذ بيد المستضعف منهم حتى يشتد عوده ، ولا تدعنَّ إبنا متجبراً يجور بالأفراخ الصغار - باعد بين إبنك وبين امرأة لعوب » . !

لقد طرق الأدب المصرى القديم كل شعاب الحياة ووفاها حقها ، ولا عجب أن تطالع فى هذا الأدب قدراً من « الحب العذرى » أيضا . استمع إلى هذه المعانى :

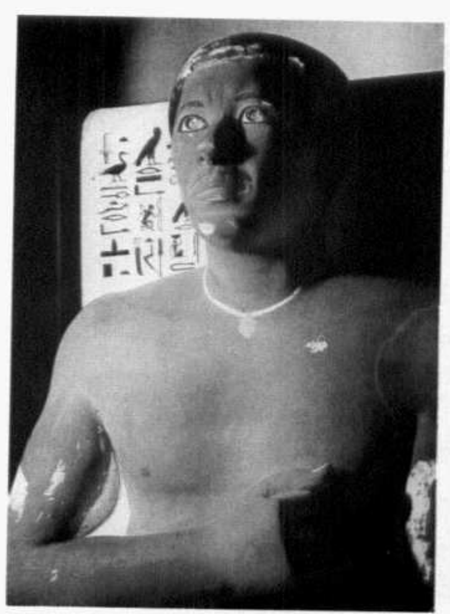
« أنا بستان زرعتك
أنا الرياحين
أنا نبتٌ يفوح بعطر الياسمين
تعال يا صاح نتهادى بخطى العاشقين
يدك تلامس يدى بدفء وحنين
القلب يرقص معك فرحاً
ومالنا وعيون الحاسدين
أنت نصيبى فى هذه الدنيا
أنت درعى على فعل السنين
وإذا نظرتُ إلى ملء عيونك
أحببتك حينا بعد حين . »(*)

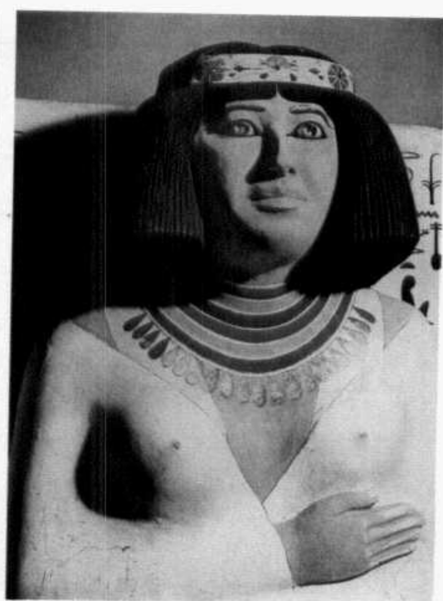


عازفة القيثار (الأسرة ١٨)

هذا وكان المصرى القديم أول من فطن إلى ناموس غلبة الخير على الشر ولو بعد حين . وتتضح هذه المعانى النبيلة فى ملحمة الوفية ايزيس وزوجها الطيب أوزير : فلقد كان الاثنان رمزاً للخير والنماء على أرض مصر كلها ؛ فايزيس هى التى كشفت للناس كيف تحول الحنطة خبزاً ؛ وأوزير هو الذى علم القوم أدوات الحرث والرى ، كما وضع لهم قواعد رباط الزواج المقدس . وبعد أن ساد الوئام فى جنبات الوادى ، جمع أوزير أهل الحكمة من صحبه وحوارييه وراح يطوف الأرض داعياً إلى الحب والسلام . وقد هبت شعوب من مختلف الألوان ترهف السمع لكلماته الشجيه ولحكمته الغنية . غير أن عدو الخير - ست وهو أخ لأوزير ، كان صاحب قلب به مرض الحقد الدفين ، فبات يتحرق كمداً من انتعاش الخير والخيرين .

(*) Lalouette, c., op. cit, p. 78 (الترجمة بتصرف الكاتب)





راحوتب وزوجته (الأســرة الرابعــة)

ويعود أوزير من طوافه البعيد ، فيدعو الأهل والخلان لحفل بهيج . ويقبل الحاقد ست مع نفر من زبانيته وقد أعدوا صندوقاً من الخشب النادر فصل خصيصاً ليطابق حجم جسم أوزير . ويعلن ست فى وسط الحفل أنه سوف يهب الصندوق جائزة لمن يرقد فى جوفه فيطابق جسده . ويتسابق الأضياف واحداً بعد الآخر دون نجاح فى المطابقة ، حتى جاء دور المضيف أوزير . وما أن رقد أوزير فى جوف الصندوق حتى تصايح المتآمرون لالهاء الضيوف ، وأغلقوا الصندوق ثم فروا به حتى ألقوه بمن فيه فى عرض نهر النيل !

« إيـزيس فى حــــزن شـــــديـد
تولـول على الزوج الشـــهـــيـــد
حـــيناً فى كـــفـــور الدلتـــا
وأخـــرى فى نجـوع الصـــعـــيـد -
إيزيـس مـــتـشـــحـــةٌ فى ســـواد
تكـفكـف الدمـع بمـنـــديل الحـــداد

تضـــــرب الشطـــــآن
فى عـــــويل وسُـــــهاد
أوزيـــــــــــــــــــــــر !
أين أنت حـــــبيـــــبى
أوزيـــــــــــــــــــــــر !
لقـــــد طال عليك الرقُـــــاد !

كانت الريح قد دفعت بالصندوق من فوهة دلتا النيل إلى البحر ، فتخاطفة الأمواج حتى شطآن ببلوس فى أرض فينيقيا . وتعثر الصندوق فى كومة عشب بحرية طافية ، وإذ بدفقة من النماء تسرى من الجسد المسجى داخل الصندوق إلي عروق العشب فيترعرع العشب إلى شجرة عفية . ويحنو جذع الشجرة المباركة على الصندوق فيضمه إلى جوفه ولكأنه جنين فى رحم أم رؤوم .

ولما أن وصلت أخبار هذه الشجرة العجيبة إلى مسامع ملك البلاد ، أمر بقطع هذا الجذع واقامته عموداً يزين به بهو عرشه الكبير .

كل هذا وايزيس تصرخ فى جنبات الوادى ، حتى استلقت على شاطئ النيل تسكب الدمع سيالاً على وجنتيها . وما أن لامس الدمع قلب مياه « حابى » الكريم ، حتى فاض فى غير موسمه إجلالاً لدمعة إيزيس النبيلة . وبعد نواح وجراح ترشد الأطيار خطى إيزيس إلى أرض فينيقيا ، فتتنكر فى زى خادمة كى تتمكن من دخول القصر الملكى . أمام صاحب العرش المهيب يتملكها البكاء والنحيب ، فيومض البرق ، ويقصف الرعد ، ثم ينشق العمود الجذع ليكشف عما فى احشاءه من صندوق به جثمان الشهيد . ويتعاطف ملك البلاد مع الزوجة الوفية ، فيسمح لها بأن تحمل الصندوق سالمة إلى أرض الوطن . وتعمل إيزيس على اخفاء الصندوق فى بقعة قصيه . ولكن عيون ست الشرير كانت لها وللصندوق بالمرصاد ، فيكتشفُ أمر الصندوق ومخبأه ، ويقوم ست وزبانيته بتقطيع جسد أوزير إرباً ، ثم يبعثرون الاشلاء فى طول البلاد وعرضها .

ولكن إيزيس لاتعرف اليأس أبداً ، فتطوف القرى والنجوع تلملم الاشلاء إلا واحدة كانت قد ابتلعتها سمكه شاردة . وتصوغ إيزيس الصابرة بديلا للقطعة الضائعة من شجرة مقدسة ، ثم تضمها جميعا إلى صدرها ، ضارعةً إلى فوقٍ فى الأعالى .

وتحدث المعجزة الكبرى ، إذ تلتئم الاشلاء وهى رميم ، وتدب نسمة الحياة فى الجسد من جديد . ومع عودة الروح والتمام الشمل بين الزوجة ورجلها العظيم ، يولد حورس الصقر المهيب ، الذى يجعل همه كله فى أن يطهر الأرض من عمه الشرير ست وعصابته!

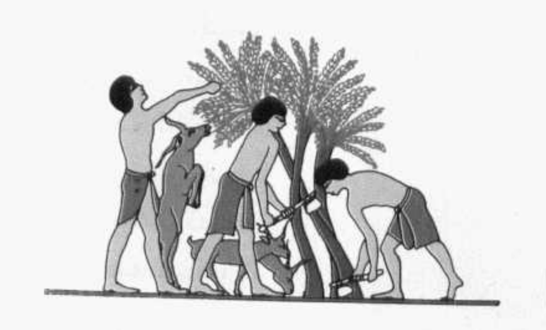
أما أوزير فيصبح فى العالم الآخر ملكا للراقدين على رجاء الخلود ، وفى يوم الحساب نراه على عرش ميزان العدالة ، حيث توزن الضمائر ، ويتبين الأخيار عن الأشرار ، ولكلٍ حسبما خفَّ أو ثقل فى كفته منْ ضمير !

الضمير يسرى فى دماء أهل مصر كما يسرى الماء فى مجرى النيل الكريم (حابى) ، ولحابى الخالد تغنى المصريون بنشيد الأنشاد :



نفرتوم يرقص على زهره اللوتس
(من العصر البطلمى ٣٢٣-٣٠ ق.م)

« سلاماً حابى
سلاماً أيها الفيض العظيم
أنت نبع الحياة
أنت النيل الكريم
اليوم عيدك
وخيرك على «كيمى» عميم
عروسك «ربيت»
تلقاك فى عناق حميم
« وسيدُ الحنطة نُبدى »
فى فرح بأمر بتاح العظيم
وزوجهُ « سخميت » باسمةٌ
وكذا ابنهما «نفرتوم» الوسيم
سيد الأرض جب
يتحرق إلى فيضك فى حنين
والكلُ يعد لك تَقدُمَةً
تليقُ بكَ - بخيرك المقُيم
هيا يا نيلُ أقبلْ علينا
وتقبلْ منا هاتيكَ القرابين » .



ثانيا :

مصر مُرضعة حوض البحر المتوسط

وتمضى الأيام وتمر السنين حتى قدر لمنطقة الشرق الأدنى أن تمتحن امتحانا قاسيا على يد قوة شرسة عاتية زحفت من بلاد الفرس بقيادة الملك قمبيز - الذى كان متهوساً بداء جنون العظمة منذ صباه - والذى مال على الفرعون بسمتيك الثالث من الأسرة السادسة والعشرين (٦٦٣ - ٥٢٥ ق.م) ، وراح يخرب ويدمر ويعبث بمقدسات مصر فى نوبات غضبه المجنون . وقد قدر لمصر أن تعانى الأهوال من تحرشات ملوك فارس حتى مجئ الاسكندر الأكبر وطرده الفرس من مصر سنة ٣٣٢ ق.م .

فى خلال تلك الحقبة من التاريخ أخذت صلات مصر باليونان تتزايد . وكان الفراعين قد أخذوا فى استخدام الأيونيين والكاريين وغيرهم من بلدان اليونان كجند مرتزقة فى الجيش المصرى ، وذلك منذ سنة ٦٧٠ ق.م وقت الأسرة الخامسة والعشرين ، عندما ظهرت على المسرح قوى آشور وبابل وفارس تباعاً . والحق أن مصر قد عانت الكثير من عدوان الملك أسور حدون الآشورى ، ثم نبوخذ نصر

ملك بابل (٦٧٠ ، ٥٨٧ ق.م تباعاً) وأمام هذا الموقف سمح الفرعون أحموسى (أمازيس) (٥٦٩ - ٥٢٥ ق.م) لجالية يونانية أن تستقر فى مدينة نوكراطيس فى دلتا مصر ، مكافأة لأبناء اليونان على خدماتهم .

ومن بين أعلام الفكر اليونانى الذين قدموا إلى مصر لينهلوا من علومها وأسرارها فى تلك الحقبة : طاليس (٦٢٠ - ٥٤٦ ق.م) الذى تعلم الفلك والهندسة وفقه الالهيات على يد الكهنة المصريين . وحذا حذوه فيما بعد الفيلسوف أناكسيمندر (ولد سنة ٦١٠ ق.م) ، وكذلك فيثاغورس الذى وفد من بلدته ساموس (ولد سنة ٥٣٠ ق.م) إلى مصر عدة مرات ليتلقى العلم على يد كهنة أون (عين شمس) ومنف وطيبة . أما الفيلسوف ديموقريطس (ولد سنة ٤٢٠ ق.م) من بلدة ميليتوس فقد قضى خمس سنوات فى مصر ألف خلالها رسالة عن حضارة «مروى» الأثيوبية ، وأخرج بعدها نظريته عن نشأة الكون والذرة المنقولة عن تاسوع آتوم المصرى . كذلك جاء أفلاطون (ولد سنة ٤٢٧ ق.م) إلى مصر ليطلع على أسرارها المقدسة ولاهوتياتها ، ومنها التقط نظريته فى « المثالية » وفى البحث عن الفضيلة وعالم الروح الذى لايدرك إلا بالتأمل فى «الكلى الخالصّ» (Nous = Dianoia) . وأما كمال المثالية وتمامها فهو الخير الذى يقوم على الفعل الفاضل . وهذا كله مقتبسٌ من الأسرار المصرية وحكمة كهنتها .

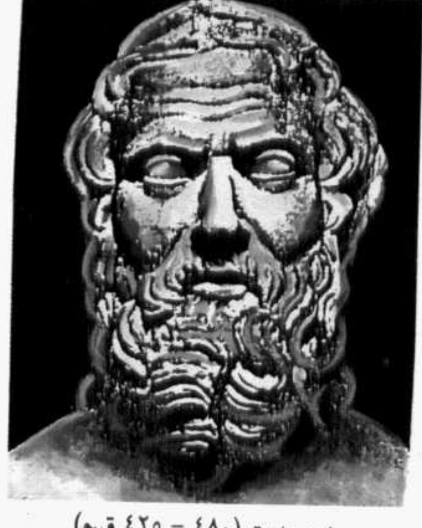
وجدير بالتسجيل فى هذا السياق أن نوضح بأن مناهج التعليم فى مدارس ومعاهد أون ومنف وطيبة كانت تشمل الفنون العقلية السبعة (النحو والصرف ، الحساب ، الخطابة ، الجدل ، الهندسة ،

الفلك ، الموسيقى) ؛ إلى جانب علوم الاله توت رب الحكمة الذى كان فى البدء رباً للقمر فى بلدة الأشمونيين ثم وجد فيه كهنة أون فيما بعد رب الكتابة والقلم وسيد الكلمة المنطوقة . ولما كانت الكلمة فى ناصيته ، صار توت (أو تحوتى) لسان كبير الآلهة بتاح ، كما أنه هو الذى نفخ نسمة الحياة لتبعث أوزوريس من الموت . ولقد اقتبس اليونان صفات توت وخلعوها على إلههم هرمس ، ذلك أن توت يتجاوز بالعقل حدود الزمان والمكان كى يطال الآخر فى سفره خروج (Extasis) قبالة «المحرك الأول» أو العقل المدبر للكون كله (Enosis) . وتضم علوم توت أيضا الموسيقى والتسابيح الالهية والتنجيم والطبوغرافيا وطرائق نحر الاضحيات ، والتنبؤ ، ووظائف الأعضاء وأمراض الذكور والإناث ، والتشريح والعقاقير والآلات الطبية وعلوم الآثار والفنون والتعدين والرموز العددية ودلالات العدد والهندسة ، وأفانين السحر ، وكتاب الموتى والأساطير القديمة والحكم والأمثال .

كما نهل اليونان من فقه إلهيات منف ، الذى يعود إلى الألف الرابعة قبل الميلاد ، حيث قيل أن الماء مصدر كل الحياة ، وحيث قصة الخلق من مبدأ العقل الأول (Nous) ، وحيث عناصر الخلق من نار وتراب وهواء وماء ؛ وحيث الذرة (atom) هى أساس كل الموجودات وبأنها لاتفنى(*) .

على أن واحداً من أبناء اليونان يستحق فى هذا السياق وقفة متأنية ، وذلكم هو هيرودوت الملقب « أبو التاريخ » ، الذى قام

(*) للمزيد فى هذا الموضوع راجع : جيمس ، چورج - جى - إم : التراث المسروق ، الفلسفة اليونانية فلسفة مصرية مسروقة (ترجمة شوقى جلال) . المجلس الأعلى للثقافة ، القاهرة ١٩٩٦ . ص ص ٥٦ - ١٣٥



هيرودوت (٤٨٠ - ٤٢٥ ق.م)

بزيارة لمصر ما بين عامى ٤٤٨ ، ٤٤٥ ق.م. ويروى هيرودوت فى «تواريخه» قصة غزو قمبيز الفارسى لمصر ، وكيف أن قمبيزاً هذا كان مصابا بداء الصرع منذ صباه ، وبأنه شبّ مخبولاً بهوس جنون العظمة ، وبأنه عندما قام بغزو مصر قد اساء إلى الفرعون بسمتيك الثالث ولبيت الفرعون ولسائر الأمراء والأعيان وكهنة منف وللعجل المقدس أبيس ، بل أنه أقدم على حماقة محمومة بأن ألجم إبنا للفرعون ومعه ألفين من شباب مصر كما تلجم الخيول وقام باعدامهم فى مدينة منف . ولا يخفى هيرودوت مشاعر الاستياء من هذا المسلك الوحشى ضد شعب عريق التاريخ والحضارة ، وفَدَ هو إلى أرضه خصيصا لينهل من منابع حكمتها وليرتوى من نيلها العذب وليتسامر مع كهنتها حول الأسرار المقدسة .

ويعترف « أبو التاريخ » أنه لم ير على وجه الأرض شعباً متديناً كشعب مصر ؛ فالايمان يسرى فى عروقهم كما يسرى الماء فى نهر النيل . أما كهنة مصر فإنهم يحلقون شعر أجسادهم كل يومين ، وهم يرتدون الملابس الكتانية النظيفة ، وينتعلون أحذية صنعت من نبات البردى ، وهم يستحمون فى الماء البارد مرتين فى النهار ومرتين فى الليل . والمصريون جميعا يختتنون بقصد النظافة والطهارة . ولسان المصريين لسان عفيف ، فهم لا يسبون أحداً ، ولا يلعنون شيئاً البتة ، بل يكتفون فى لحظات الغضب بالابتهال إلى الآلهة أن تقتص لهم من شرور الآخرين .

والمصريون حريصون على الاغتسال قبل دخول المعابد حفاظاً على قدسيتها . وهم أيضا يشفقون على الحيوان والطير ويحرمون الاعتداء أو الجور عليها ، بل إنهم يقدسون البعض منها . وأهل مصر يسجلون الأحداث أولاً بأول ، فهم بذلك أفضل المؤرخين . ومن عادات المصريين أنهم يتناولون شربة مطهرة كل شهر ، اعتقاداً منهم بأن المعدة هى بيت الداء .

والمصريون فى أحزانهم يحركون مشاعر الأسى فى القلوب ، وترجع اشهر بكائياتهم - كما سمع من الكهنة - إلى زمان بعيد يوم أن فقد أول ملوكهم إبنا عزيزاً له ، فراح الفرعون وشعبه فى النواح عليه طويلاً ، والأبن الفقيد هو ماناروس الذى يسميه الأغارقة باسم لينوس .

وشباب مصر يوقرون فى إجلال وإكبار الكبار فى السن ، ويفسحون لهم الطريق ، ويهمون وقوفا فى الأماكن العامة ليجلس الكبار . وفى تبادل التحية ينحنى المصريون انحناءة وقورة ، مع لمس الركبة باليد تأدباً واحتشاماً . والمصريون - يقول هيرودوت - عباقرة الدنيا فى العمارة والبناء فهم أمة تبنى ، ولهم فى علوم الهندسة والحساب والفلك والتقويم وقراءة الطالع باع طويل .

أما تحنيط جثث الموتى فهذا عجب عجاب كما يشهد هيرودوت : ولقد شملت مكونات التحنيط شمع عسل النحل لتغطية الآذان والعيون والأنف ؛ والقار لدهن الجسد ؛ والقرفة ونبات مر الكاسيا ؛ وزيت الأرز ؛ والصمغ العربى لطلاء الكسوة الكتانية التى تلف الجسد ؛ والحنة للحفاظ على لون أصابع اليد والقدم ؛ والنطرون لمنع تعفن المومياء ؛ والبخور والكندُر لطلاء الكفن ؛ وقشر البصل لصيانة العيون والآذان ولملء فراغ البطن والصدر ؛ وعرق البلح لتطهير البطن بعد استخراج الأمعاء .

وتتضح عبقرية التشريح عند المصريين القدماء فى دقة عملية التحنيط : إذ كانوا يفرغون الرأس من مادة المخُ وخلاياه بواسطة خطاف جراحى من الأنف ، ثم يقومون بغسل فراغُ الدماغ تماما . ثم يقومون بملء هذا الفراغ بعد غسله ببهارات عطرة وبالصمغ العربى باستخدام أدوات طبية خشبية ومشارط معدنية . بعد ذلك توضع الجثة على مستطيل خشبى على منضدة ، ثم يقومون بفتح الجثة من جانبها الأيسر لاستخراج الأمعاء وبعض المصارين الأخرى . ولكنهم كانوا يبقون دوما على القلب والكلى داخل الجثة . وبعد هذا يتم غسل جميع الفراغات بخليط من عرق البلح والمر والكاسيا والقار ، ثم يملأون الفراغات بمكونات عطرة الرائحة . وبعد ذلك يغسلون الجثة ويملحونها ثم يغطونها بمسحوق النطرون لمدة سبعين يوماً . ثم يعاد مسح الجثة بزيت الأرز والأعشاب العطرية الأخرى . وبعد ذلك يغطون الجسد بلفافات البردى المشبعة بالصمغ العربى . وأخيراً توضع المومياء فى تابوت خشبى على شكل آدمى ، ثم تسلم إلى العائلة لدفن فقيدها(*) .

ومصر – كما يقر هيرودوت – أرض وفادة وكرم للغريب ؛ فلقد سمع هو من كهنّة عين شمس أن الأمير الطروادى پارسى الذى كان قد أختطف هيلين زوجة مضيفة منيلاوس ملك اسبرطة ، قد جنح بسفينته ورسى على شواطئ مصر . ولما أن علم الفرعون بخبره وسره ، عنفه تعنيفا شديداً على فعلته النكراء فى حق مضيفة وسمعة زوجته هيلين ، ثم طلب منه مغادرة البلاد فوراً بغير سوء .

وفى رواية أخرى علم هيرودوت أن هيلين ، بعد أن أحرق الأغارقة مدينة طروادة وأهلها انتقاما لشرفهم الذى أهين على يد

(*) Herodotus, The Histories (Penguin Books). London, 1955, Passim.

الأمير پارسي ، قد قصدت إلى مصر ، فأهداها الكهنة عباءة ومغزلاً علهما يعينانها على التوبة ومغالبة الشعور بالذنب إلا أن الرواية الثالثة التي صدمت آذان هيرودوت هي مسلك واحد من بني جلدته وهو منيلاوس ملك اسبرطة الذي أبحر مسرعاً بمراكبه ليتسلم زوجته التي حررها الأغريق من مخالب الطرواديين . وبعد أن تسلم زوجته شد الرحال للابحار . ولكن ريحاً معاكسة أوقفت مراكبه ، فما كان منه إلا أنه اختطف طفلين مصريين وقدمهما ذبيحة لآلهة الزوابع كي تهدأ . ثم أبحر منيلاوس بعد هذه الجريمة النكراء إلى بلاده اسبرطة !

ويعقب هيرودوت على هذه الرواية - ولعلها من خيال العصر - بأنه ليس من المستغرب أمام هذا المسلك الهمجي من جانب منيلاوس الأغريقي ومن قبله قمبيز الفارسي أن ينظر المصريون إلى الأغراب أو الأجانب نظرة التوجس والخيفه بسبب السلوك « المتبربر » الذي لمسوه فيهم ومنهم(*) .

ظلت مصر في قبضة الفرس حتى قدر للاسكندر الأكبر المقدوني (٣٥٦ - ٣٢٣ ق.م) أن يطرد الفرس من مصر سنة ٣٣٢ ق.م، بعد أن أوقع الهزيمة بجيش القائد مازاكيس الفارسي في مدينة الفرما . وبعد هذا النصر المؤزر قصد الاسكندر إلى مدينة منف العاصمة العريقة لمصر ليقدم القرابين للآلهة المصرية شكراً وإمتنانا . والحق أن الاسكندر كان قد تتلمذ على يد المعلم الكبير أرسطو (٣٨٤ - ٣٢٢ ق.م) في بلاط والده فيليب ملك مقدونيا . ولاشك في أن أرسطو فيلسوف زمانه كان قد حدث تلميذه النابه عن حكمة المصريين وحضارتهم ولاهوتياتهم ، كما علمه فيما علم

(*) Herodotus, Op. cit. loc. cit.

أيضا النظرة الكونية للتاريخ ، وبأن العالم يتسع للهلينيين (الإغريق) وغير الهلينيين ، وبأن أهل اليونان مدينون فى العلم والحكمة بالشئ الكثير لأهل مصر . وفى مدينة منف لقى الاسكندر ترحيباً حاراً من كهنتها الذين تنفسوا الصعداء بعد انقشاع غمة الغزو الفارسى . وتقول الروايات أن كهنة منف قاموا بوضع تاج آخر الفراعين نختانبو الثانى (٣٤٣ ق.م) على رأس الاسكندر ، تكريماً له واعترافا منهم بأنه خلف لهؤلاء الخالدين .


الاسكندر الأكبر (٣٥٦ - ٣٢٣ ق.م)

والمعروف عن الاسكندر أنه كان شديد الشغف بملحمتى الشاعر العبقرى هومر (قرن ٩ ق.م) وهما الإلياذة والأوديسّه ، حتى إنه كان يضعهما تحت وسادته أينما رحل . وطبقاً لرواية المؤرخ بلوتارخ (٦٤ - ١٢٠ م) فإن هومر ظهر للاسكندر فى المنام ، وهو لايزال على أرض مصر ، وكرر عليه بيتين من ملحمة الأوديسّه يشيد فيهما هومر بعبقرية موقع جزيرة فاروس المصرية فى حضن البحر الأبيض المتوسط :

« هاتيك الجزيرة
فاروس الصغيرة
يتراقص حولها الموج
على شطآن مصر » .

ومن هذا الإلهـام الهـومـرى ولدت فى ذهن الاسكندر فكرة تأسـيس مـدينـة الاسكندرية على قـرية راقـودة لتـصـبح عـاصـمـة امبراطوزيته الكبيرة .

وقـد عـهـد الاسكندر إلى مـعـمـارى مـرمـوق هو دينوكـراتيس بتـخطيط المدينة . ويروى أن الجيـر الذى كان يسـتـخـدم فى رسم خطوط المدينة قد نفذ ، فاستـخدم المهندسون دقيق القمح عوضاً عن الجيـر لاسـتكمـال التـخطيط ؛ فـهبطت على التـوحومـة من طيـور السمـاء تلتـقط نصـيبـها من حبات الدقـيق المنشور . وقـد فـسر العرافـون تلك الواقـعة على أنها إشارة بأن المدينة الوليـدة سوف تصـبح مـخـزناً للغـلال ومـرضـعـه لبلدان حوض البـحـر المتـوسط بخيرها الوفير .

بعد ذلك قام الاسكندر برحلة إلى واحة سيـوة حيث معبد الاله آمـون كبـيـر الآلهـة المصـرية . وتقـول الرواية أن سـرباً من الطيـور كان يـحلق فـوق مـوكب الاسكـنـدر يرشـد خطـاه إلى مـرمـاه . وفى المعبـد سُمَح للاسكندر بالمثـول فى قـدس الأقداس ، ثم خاطبـه كاهن المعبد باليـونانيـة قائلا « أوپيـديوس O Paidios » بدلاً من « أو پيديون O Paidion » ، وما نطق به كاهن آمون يعنى « أيها الإبن » ، بينما تعنى الثانية « أيهاب الفتى ! » . وعندها اعتقد الاسكندر أن آمون قد اتخذه لـه إبناً ! . والحق أن أولمپياس والدة الاسكندر ظلت تلح عليـه منذ صباه أنـه مَن نسل الآلهـة وكبيـرهم زيوس الذى رأى فيه اليونان صنواً لآمون المصرى(*) .

ولما كان رمـز آمـون هـو الكبش ذو القرنين ، فلربما (؟) اكتسب الاسكندر كنُية « ذى القرنين » من هذه المناسبة !

ولمـا أن فـرغ الاسكندر من تـدابيـر إدارة شـئـون مـصـر وتأمين حمـاية حدودها ، عـهـد إلى صديقه بطلميـوس بن لاجوس بـالولاية عليها والإشراف على استكمـال بناء مـدينة الاسكندرية ، ثم غـادر مصر ليـواصل حروبه ضد فارس وفـتـوحاته فى جوف قارة آسيا .

(*) Plutarch, Lives (Everyman's.Library) . London, 1929 Passim.

وبعد طول قتال فى عمق بلاد الهند يعود الاسكندر إلى مدينة بابل ، وهناك تلدغه بعوضة ، وبها كان مقتل فاتح الغرب والشرق ، وذلك فى سنة ٣٢٣ ق.م ، وكان عمره ثلاثة وثلاثين عاماً بالكاد !

وبعد وفاة الاسكندر أسس بطلميوس الأول فى مصر حكم البطالمة الذين ظلوا يحكمون البلاد من سنة ٣٢٣ ق.م حتى سنة ٣١ ق.م وهى سنة الغزو الرومانى لمصر .

ولقد نهج الملوك البطالمة فى حكمهم لمصر والمصريين نهجاً مخالفاً لسياسة سيدهم الاسكندر الأكبر ؛ إذ كان حكمهم بيروقراطيا قاسياً ، وصارت مصر ضيعة يتحكم فى مواردها البطلميوس هم وكبار رجالاتهم وبلاطهم . وتغلغل الاقطاع فى قلب الريف المصرى ، فظهرت طبقة أجنبية من أرباب الضياع والوسايا والأبعاديات . واتبعت حكومة البطالمة نظام الاحتكار فى الزراعة والصناعة والتجارة ، كما احتكرت المصارف أيضا . وبات لزاماً على الفلاح المصرى أن يورد جزءاً من غلة محاصيله إلى خزانة التاج الملكى كضريبته ، وأما ما يتبقى من حصاد فكان يورد أيضا إلى « شونة » الملك (Thesauros) . وربط العمال إلى مصانع الزيت ومعاصر النبيذ لايبرحونها ، كما احتكر البطالمة أيضا صناعة المنسوجات من الصوف والقنب .

وقد أثقل البطالمة كواهل الفلاحين المصريين بالعديد من الضرائب : فقد كان على المصريين جميعاً دفع ضريبة الرأس (Epikephalion) إلى جانب ضرائب أخرى على المبانى وأدوات الحقل من فأس وشادوف ، وعلى تسجيل العقود وانتقال الحيازة ، وعلى الأيلولة والوراثة . كما أجبر البطالمة أهل مصر على أعمال السخرة فى مختلف مشاريع حفر القنوات وإقامة السدود وغيرها . وفى مجال الصناعة احتكر البطالمة صناعة الزيت من حبوب السمسم والقرطم والخروع .

ورغم هذه السياسة المتسلطة لم يستسلم المصريون لهذا الظلم الفادح ، فقاموا بالثورة تلو الأخرى : سنة ٢٠٧ ق.م فى طيبة

بزعامة ارماخيس وانخاماخيس بمؤازرة من ملك النوبة هيرجونابهور ؛ وسنة ١٦٥ ق.م بزعامة النبيل المصرى بتوسرابس فى الاسكندرية ؛ وسنة ١٤٥ ق.م فى أخميم والفيوم ، وغيرها كثير .

وجدير بالتسجيل فى هذا السياق أن المصريين بكل شرائحهم ظلوا مستمسكين بعقيدتهم وآلهتهم وتقاليدهم وعاداتهم ولغتهم ، ولم تفلح محاولات البطالمة فى أغرقة مصر . وظلت المدارس والمعاهد الملحقة بالمعابد المصرية فى الدلتا والصعيد تؤدى رسالتها الوطنية وترسيخ التراث المصرى التليد فى قلوب أبناء مصر ، حتى ذابت الهلينية فى البوتقة الذهبية المصرية التى ولدت ملامح حضارتها الرائدة فى الألف الخامسة قبل الميلاد أى قبل أن تولد الهلينية بألوف السنين .

على أنه ينبغى ملاحظة أن الملك بطلميوس الأول قد شاور الكهنة المصريين والأغريق كى يرشدوه إلى عبادة تؤلف بين الأغريق وأهل البلاد . ومن هنا ولدت عبادة سيرابيس المشتقة



خادمة تعتنى بسيدتها (الأسرة ١٨



الربه حتحور (ترجع اللوحة)
(الأسرة ٢٠/١٢٠٢-١١٠٢ ق.م)

من العقائد المصرية فى شخص أوزوريس رمز النيل وناشر السلام والمنتصر على الموت وميزان الحساب فى الدار الآخرة ، وفى سيرة ابنه حورس الصقر الذى وضع حداً لشرور عمه ست .

ولقد وجد الكهنة الأغريق (من يونان ومقدونيين وغيرهم) فى سيرة أوزوريس وخصاله ما كانوا يعرفونه سلفاً عن معبودهم ديونسيوس (وهو ابن لزيوس من سيميلى أميرة حور ، والذى أقامه زيوس من الموت بعد مؤامرات من تدبير هيرا زوجة زيوس الأولى الغيورة) . وأقام البطالمة للمعبود الجديد - سيرابيس - تمثالاً هائلاً ومعبداً فى مدينة الاسكندرية هو المعروف باسم «السيرابيوم» ، وسرعان ما أشيع الكثير من الروايات عن معجزاته فى شفاء المرضى .

أما إيزيس زوجة أوزوريس فقد تعرف عليها اليونانيون كرمز خالد للوفاء والصبر ، ولذا فإنهم قد خلعوا بعضا من صفاتها النبيلة على ربة الجمال عندهم وهى أفروديت ؛ وكان يحلو للملكات البطلميات التشبه بايزيس فى كل شئ خاصة فى زيها الجميل وتاجها المزدان بالأفعى المقدسة . كما أن الرسامين والنحاتين الأغارقة صوروا هؤلاء المليكات البطلميات فى صورة الربة إيزيس(*) . كذلك شبه اليونانيون إلههم هاربو قراطيس (وهو من أسماء أپوللو آله الشمس) بحورس المصرى الذى انتقم لمقتل أبيه وأنتقم من عمه الشرير ست وأعاد السلام والعدل إلى أرض مضر . يلاحظ أيضا أن الملوك البطالمة كانوا يتخذون عند تتويجهم ألقابا فرعونية خالصة من قبيل : المختار من رع ؛ حورس المحلق فى أفق السماء ؛ المحبوب من آمون ؛ وريث ماعت ؛ محق العدالة ؛ سيد الوجهين - إلخ) .

(*) شيد الفرعون نختانبو الأول معبداً للربة إيزيس (حوالى سنة ٣٧٠ ق.م) فى جزيرة فيلة بأسوان . ثم أضاف الملوك البطالمة بنايات إضافية إلى هذا المعبد فى القرنين الأخيرين قبل الميلاد ، وحذا حذوهم الأباطرة الرومان فى القرون الثلاثة الأولى للميلاد . وتشير النقوش فى معبد فيلة أن الحجاج من كل لون وجنس ظلوا يقصدون إلى هذا المعبد ، وكان المرضى منهم يتضرعون إلى إيزيس أن تمن عليهم بالشفاء . وحتى القرن الخامس للميلاد داوم الناس على تقديم القرابين للربة إيزيس ، كما أنهم كانوا يحتفظون بصورها فى بيوتهم ، وظل الحال كذلك حتى أمر الامبراطور البيزنطى جستنيان الكبير (٥٢٧ - ٥٦٥م) بأغلاق هذا المعبد .

ويذكر للملك بطلميوس الأول (٣٢٣ - ٢٨٣ ق.م) أنه كلف عالماً يدعى ديمتريوس من بلدة فاليروم بإنشاء معهد علمي ومكتبة حول الحي الملكي في الاسكندرية ، لخلق أكاديمية للعلم والعلماء ومحبي الفنون والآداب . وقد أطلق ديمتريوس على هذه المؤسسة العملاقة اسم « موسيون » (Mouseion) نسبة إلى بنات زيوس من زوجته منموسيني ، وعددهن تسع ربات وهن : كاليوبي ربة الشعر الملحمي ؛ كليو ربة التاريخ ؛ يوتريبي ربة المزمار ؛ ملبوميني ربة التراجيديا ؛ تيربسيخوري ربة الرقص ؛ ايراتو ربة القيثارة ؛ بوليهمني ربة الأناشيد المقدسة ؛ يورانيا ربة الفلك ؛ ثاليا ربة الكوميديا .

وما من شك في أن الملوك البطالمة قد زودوا مكتبة الاسكندرية بالعديد من لفائف البردي التي نقلت من منف وأون وطيبة وغيرها ؛ بما تحتويه من لاهوتيات(*) وفلك وطب وتسابيح دينية وموسيقى وهندسة إلى آخره من فروع المعرفة التي كان الفراعنة وكهنة المعابد عباقرة الدنيا في كل منها منفردة وفي جماعها كمنظومة علمية كونية شاملة .

(*) إقتبس اليونان العديد من صفات الآلهة المصرية القديمة وخلعوها على آلهتهم ، ومن ذلك على سبيل المثال لا الحصر :

- آمون (ومعناه الخفي) الذي خلع اليونان صفاته على كبير آلهتهم زيوس (ومن ألقابه رب البيت وحارس المتاع) .
- إيزيس (رمز الوفاء والجمال) أفروديت (ومن ألقابها راعية الرباط الزوجي والحياة العائلية) .
- أوزوريس (رب الخضرة والزرع والمنتصر على الموت) ديونسيوس (ومن ألقابة راعي الزرع وملهم الموسيقى والشعر) .
- إمحوتب (الطبيب والحكيم) اسكلبيوس (الطبيب الشافي ومجدد الشباب) .
- بس (رمز المرح وحامي الطفولة) پان (راعي القطعان وعازف الناي) .
- توت (تحوتي - مبدع العلم ورب القلم) هرمس (راعي الخصب وحارس الطريق ومبدع القيثارة) .
- حورس (الصقر المنتقم) هاربوقراطيس (رمز الشباب وقرص الشمس عند إكتماله) .
- رع (إله الشمس) أپوللو (قاهر التنين وحامي الزرع من الآفات والمعين على الشفاء وكشف المجهول) .
- ست (رمز الغدر والخيانة) تايفون (ابن الظلام الوحشي ورأسه مكونة من مائة من رؤوس الأفاعي) .
- نفرتوم (معناه الجميل حقا ويصور راقصاً على زهرة اللوتس) أدونيس (جميل الطلعة والذي وقعت في غرامه أفروديت نفسها) .
- نيت (سيدة الحروب) أثينا (صاحبة الدرع الواقي) .
- وپ واويت (فاتح الطريق إلى العالم السفلي/في هيئة الذئب) پلوتو (هيديس) (حارس عالم الموتى) .

وقد تولى رئاسة أكاديمية الاسكندرية فى البداية اثنان من تلامذة أرسطو هما ديمتريوس ، وستراتون . ولكى يثرى بطليموس الأول مكتبة الأكاديمية فإنه أجبر كل من يحط رحاله فى الاسكندرية أن يسلم ما يحمله من كتب إلى المكتبة ليتولى النساخ خط نسخ منها للاحتفاظ بها فى المكتبة . فإذا كان الأمر كذلك مع الوافدين الأجانب إلى الاسكندرية ، فكم هو حرى إقدام البطالمة تباعاً على تزويد هذه المكتبة بتراث مصر القديمة ، بعد أن صارت مصر «ضيعة» فى جيب هؤلاء الأغارقة والمقدونيين .

وقد قدر لهذه المكتبة الفريدة فى نوعها أن تضم إلى جانب التراث المصرى لفائف ملحمتى الالياذه والأوديسه ، واشعار هزيود ونبدار ، وحوارات أفلاطون ، والنسخ الأصلية لمسرحيات اسخيلوس (قرن ٦ ق.م) وسوفوكليس (قرن ٥ ق.م) ويوربيديس (قرن ٥ ق.م) . ويقدر بعض الدارسين ذخائر هذه المكتبة بما بين سبعمائة ألفاً ومليون كتابا . وعندما جاء القائد الرومانى يوليوس قيصر ليناصر كليوبترة السابعة ضد أخيها فى الصراع على عرش الاسكندرية ، أشعل النار فى السفن البطلمية الراسية فى الميناء الكبير ، وارتفعت ألسنة الحريق حتى طالت مكتبة الاسكندرية وأتت على كل ما فيها من كنوز وذخائر علمية . كان ذلك فى سنة ٤٨ ق.م ، وكانت الجريمة الرومانية تلك ضد حضارة الإنسانية أمراً قميئا لايغتفر . وبذلك تنتهى التهمة الزور التى روج لها بعض المغرضين بأن العرب هم الذين أحرقوا مكتبة الاسكندرية عند فتح القائد عمرو بن العاص لها سنة ٦٤١م . وهذه كلمة حق ينبغى إبرازها إنصافاً للتاريخ وللحقيقة .

شهدت أكاديمية الاسكندرية نهضة علمية وبحثيه ليس لها نظير فى التاريخ :

ففى مجال الشعر تم إحياء ضروب الشعر القديم واشعار الريف وشعر المسرح وشعر الحماسة والملاحم البطولية وشعر الكوميديا وشعر الإبيجراما Epigramma الذى كانت تنقش مرثياته على ضريح الموتى وبعضها كان مخصصاً للآلهة ؛ وشعر الحب ، ومناجاة

الأرباب وتقدمه القرابين والأضحيات ، ومن الأسماء التى لمعت فى هذه الضروب الشعرية فيليتاس ، وكاليماخوس ، وديوستوريدس .

وفى التاريخ وضع الكاهن المصرى مانيتون تاريخاً لمصر القديمة باللغة اليونانية . واهتم مؤرخو العصر بتسجيل تواريخ دويلات المدن اليونانية ، والأحداث الهامة فى حفلات البلاط الملكى وإقامة المعابد والمسلات ، وقصص البطولة القديمة وصولاً إلى الاسكندر الأكبر . ومن أبرز الأسماء المؤرخ هكتايوس الذى عاش فى زمن بطلميوس الأول ، والذى يعترف صراحة بأن اليونان قد نقلوا عن المصريين الأساطير واللاهوت وأسماء الآلهة وفن العمارة والنحت والقانون . أما العالم اراتوسثينيز (٢٧٥ - ١٩٤ق.م) فقد عمل أميناً لمكتبة الاسكندرية ، ووضع كتاباً بعنوان «الأزمنة» (Chronographia) فى تسعة أجزاء ، بدءًا بحرب طروادة ووصولاً إلى الاسكندر الأكبر ويذكر لهذا الرجل أنه قد تضلع أيضا فى الفلك والجغرافيا ، إذ قدَّر محيط الأرض بـ ٢٤,٦٦٢ ميلاً وقطرها بـ ٧٨٥٠ ميلاً ، وهى أرقام لاتفترق كثيراً عن تقديرات المحدثين من العلماء .

وفى الطب استرشد الأغارقة بحكمة مصر القديمة وأسرارها فى التشخيص والعلاج بما ورد فى البرديات ومما أسربه الكهنة إليهم من معارف . وانتعشت من جديد مدرسة أبو قراط (قرن ٥ق.م) ، وتطورت المنظومة الطبية إلى الجوانب التجريبية التى ألحَّ عليها أرسطو ، فتخصص البعض فى علم التشريح ، والبعض الآخر فى وظائف الأعضاء ، وتوصل العالم هيروفليوس إلى أن الشرايين تحمل دما لاهواء كما كان يظن البعض ، كما ابتكر هذا العالم أيضا أدوات لقياس نبض القلب ، وأدوات دقيقة لاجراء العمليات الجراحية . واستفاد علماء الاسكندرية الشئ الكثير من المداواة بالأعشاب على طريقة المصريين وتركيب العقاقير الطبية وتحضير المسكنات للألم وعقاقير التخدير عند إجراء العمليات الجراحية . ومن أبرز من لمعوا فى هذا المجال الأخير العالم هيراقليدس .

وفى الرياضيات أخرج اقليدس كتابه «العناصر» فى الاسكندرية ، ودارت بحوثه حول حجم الأهرامات ووزنها ، وتوصل

واحدٌ من تلاميذه يدعى هيپارخوس إلى حساب المثلثات وتحديد طول الشهر القمرى، وموعد الاعتدالين الربيعى والخريفى.

كذلك وصل إلى الاسكندرية العالم المرموق أرشميدس (ولد فى صقلية سنة ٢٨٧ ق.م)، الذى اكتشف قانون «الكثافة النوعية» بينما كان يستحم فى واحد من حمامات سراقوسة العامة، فقفز عارياً يجرى وسط الشوارع ينادى باسم زوجته صائحا: «لقد وجدتها - لقد وجدتها» ويذكر أن ارشميدس أثناء إقامته فى مصر قد توصل إلى حساب نسبة محيط الدائرة إلى قطرها، وبأنه حسب ميقات كسوف الشمس وخسوف القمر فى دقة بالغة.

كما شهدت جامعة الاسكندرية ازدهاراً فى بحوث النبات والحيوان والطيور، كما أجرى العالم ثيوفراستوس تجارب على خمسمائة من فصائل النبات، وله أبحاث أيضا عن إخصاب النخيل.

وفى الفلسفة واللاهوتيات صارت الاسكندرية منارةً للعالم المتحضر بفضل كوكبة من العلماء من بينهم اللاهوتيان الفيلسوفان كلمنت السكندرى (١٦٠ - ٢١٥م) أوريجانوس (١٨٥ - ٢٥٤م) اللذان قالا بعدم وجود تعارض بين الفلسفة والعقيدة الدينية، ولهما شروح شيقة لمفهوم «العذاب» الروحى مؤداه أن وخز الضمير وضنى الروح أنكى وأشد عذاباً على الإنسان من لهيب النار التى لاتنطفئ.

كما أنتعشت فى الاسكندرية الفلسفة الغنوصية (Gnosticism) التى نادى أصحابها بأن المعرفة (Gnos) هى صنو العقل، وبأنها أحلى الفضائل وبأن النفس الروحانية هى النفس العارفه أما النفس الشهوانية فهى النفس الجاهلة. ومن أعلام الاسكندرية أيضا افلوطين الذى ولد سنة ٢٠٥م بصعيد مصر، والذى نزح إلى الاسكندرية يعمل حمالاً فى مينائها للحصول على نفقات حضوره دروس الفلسفة. وبعد أن امتلأ أفلوطين بروح الحكمة نادى بوحدة الوجود، وبفضل الفيض الإلهى على سائر مخلوقات الكون. ونزعة هذا المصرى الفذ نزعة صوفية نسكية على درب الجهاد الروحى على

أمل الوصول إلى حالة من الفناء التام فى الذات الالهية (Ext Asis) . ولا يتأتى هذا الحال عند أفلوطين إلا بتجاوز كل ما هو مادى ، حتى تنعتق الروح من أغلال الجسد والماديات . وقد تأثر أفلوطين بأناشيد اخناتون لقرص الشمس آتون ، ويقرن اسمه بالأفلاطونية الجديدة (No-pltonism) وهى من معطيات الاسكندرية ، ومن أشهر أعماله « التساعية » (Enneads) التى يعبر فيها أفلوطين عن خجله من جسده الفانى وعن تحرقه من سجن هذه الخيمة الجسدية .

ومن بين من تأثروا بفكر أفلوطين كانت الفيلسوفة هيباتيا (Hypatia) (٣٧٠ – ٤١٥م) التى تعتبر فى نظر الدارسين آخر « المشائين » (Peripatetics) من فلاسفة الاسكندرية والتى هجم عليها رعاع المدينة وقطعوها إربا بسبب تعلقها بالفلسفة ودفاعها المستميت عن الفلسفة القديمة فى مواجهة موجة الحماس الدينى للمسيحيين فى الاسكندرية والذين كانوا يبغون تحطيم كل آثار التراث القديم على أنه وثنى ومناف لقواعد الايمان الجديد . ومن بين ما قالته هيباتيا لتلاميذها قبل مقتلها : « أتعلمون ما الخير ؟ : الخير هو سلب الشر ، فالخير هو المبدأ الأول ، فوق كل يقين ووجود ، والخير معنا ومن حولنا ، ولكن نفوسنا الآثمة لاتستوعبه . هيا بنا معاً نفتش عن خيط الخير على الطريق من جديد ، كما كان المصريون القدامى يبحثون عن الحقيقة من فيض النور المنبثق من رع كبير الآلهة . كفانا فساداً ومضاجعة لرذائل هذه الدنيا ، هيا بنا نمضى على الدرب الكبير أملاً فى الاتحاد بالخير الأول » !

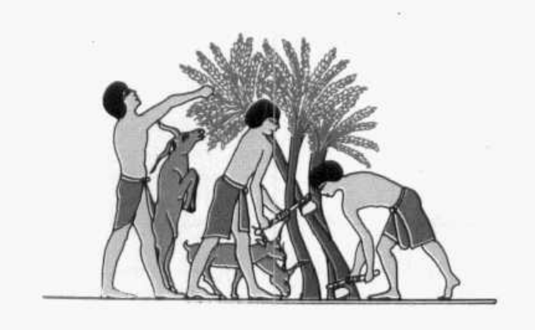
ويرتبط بهذه النزعة الأفلاطونية الجديدة فى الاسكندرية اسم جماعة عرفت باسم « الهرامسة » أى اتباع هرمس ابن زيوس من زوجته مايا ، الذى خلع عليه اليونان صفات الآله تحوتى (توت) رب الحكمة المصرى . وتتلخص فلسفة الهرامسة فى ضرورة اعلاء شأن الروح على الحاجات وشهوات الجسد ، ولهم درج روحانى مؤلف من تسعة « مقامات » ، يولد المرء بعد صعود كل مقام الميلاد الجديد حتى تخلص نفسه تماماً من أدران هذا العالم !

هذا عن الفكر والفلسفة واللاهوتيات . أما فى مجال الفنون والعمارة فلقد شيد اليونان ومن بعدهم الرومان العديد من المعابد ، اقتبسوا فى تصميم أعمدتها رؤوس الأعمدة المصرية القديمة المزدانة بزهرة نبات البردى . كما زودوا هذه الأعمدة بحلقات جانبية مستمدة هى أيضا من الأصول المعمارية المصرية ؛ من أشكال أوراق زهرة السوسن (Iris) التى كانت رمزاً لمصر العليا قبل توحيد الوجهين .

ولقد عثر الأثريون فيما عثروا على رأس للاسكندر الأكبر مصنوع من خام الجرانيت الأحمر ، وهو مادة غريبة على النحت الأغريقى ، ويوجد فى قمة الرأس ثقب كبير لعله كان يراد به تثبيت تاج الآله آمون عليه ، بعد أن اعترف كهنة آمون بالاسكندر إبناً لآمون . إلى جانب ذلك وجدت نقوش بارزة كثيرة تصور الملكات البطلميات يحملن على رؤوسهن نقابا يعلوه تاج ايزيس . كذلك قام البطالمة والرومان من بعدهم بسك عملات تحمل صور إيزيس وسيرابس ، وتبدو ايزيس مرتدية إكليلاً من سنابل القمح . ويلاحظ فى تصفيف الشعر أنه كان يرتب فى جدائل لولبية على الطراز المصرى . وتحوى نقود البطالمة تاج إيزيس المؤلف من قرص الشمس يحوطه قرنان وتعلوه سنبلتان من القمح(*) .

من هذا العرض يتضح لنا إلى أى حد إغترف اليونان وورثتهم الرومان بعد ذلك من الفكر المصرى والآداب المصرية والأسرار الكهنوتية ، ومن العمارة ومن العقيدة ومن الفلسفة وغيرها كثير من دروب العلم والمعرفة . وهذا العطاء المصرى لحضارات حوض البحر المتوسط « من يونان ورومان وهم أساتذة كل الشعوب الأوربية فيما تلا من تواريخ ، هو الذى يجعلنا نقرر بأن مصر كانت « مرضعة » لهذا الحوض بكل ما تعنيه الكلمة مادياً وروحياً .

(*) إبراهيم نصحى (د.) : تاريخ مصر فى عصر البطالمة (٤ أجزاء) . مكتبة الأنجلو المصرية . القاهرة ١٩٨٠ - ١٩٨٨ .



ثالثا :

شمس العرب تسطع على أرض النيل الكريم

جاءت نهاية البطالمة فى مصر على يد القائد الرومانى أوكتافيانوس أغسطس (٦٣ ق.م - ١٤ م) الذى زحف بأسطوله على قوات مارك أنطونى وحليفته كليوبترة السابعة آخر الملوك البطالمة فى الإسكندرية ، وذلك فى منطقة نتوء بحرى (أكتيوم) جنوبى إپيروس على السواحل الغربية لبلاد اليونان فى فجر الثانى من سبتمبر لسنة ٣١ ق.م . وفجأة قررت كليوبترة أن تنزلق بأسطولها المكون من ستين سفينة مبحرة إلى الإسكندرية . ولأمر ما لاندركه فى ضمير مارك أنطونى ، انزلق هو أيضا فى أعقاب مليكه قلبه كليوبترة ، تاركا سمعته العسكرية ورجاله تحت رحمة الأقدار . وسرعان ماأنضم رجال أنطونى إلى لواء أغسطس بعد أن هجرهم سيدهم ، وخرج أغسطس من هذه المعركة البحرية التاريخية سيد الموقف لاينازعه منازع .

وبعدها زحف أغسطس على الإسكندرية ليجهز على غريمه أنطونى وعلى عشيقته كليوبترة السابعة .

وكان من النتائج المباشرة لانتصارات أغسطس على غريميه فى اكتيوم ثم فى الإسكندرية أن أنتحرت كليوبترة السابعة ، ثم

تبعها مارك أنطونى ، وبذلك صارت مصر ولاية رومانية(*)

واكتوت مصر بكابوس الرومان مثلما كانت قد أكتوت بنيران البطالمة من قبلهم ، إذ كان على المصريين أن يؤدوا ضريبة الرأس ، كما كان على مصر - مخزن غلال حوض البحر الأبيض - أن تصدر إلى روما مامقدراه آلاف الأرادب من القمح صبيحة كل يوم .

وفى عهد الأمبراطور دقلديانوس (٢٨٤ - ٣٠٥ م) شهدت مصر موجة من الأضطهاد الرومانى راح ضحيته الآلاف من أبناء مصر ، حتى عرف عهد دقلديانوس باسم « عصر الشهداء » وبعد إعتزال دقلديانوس الحكم (٣٠٥م) نشبت حرب أهلية بين قياصرة روما ، وانتهى الصراع بخروج قسطنطين الكبير منتصرا على كل خصومه ، فانفرد بالحكم ونقل العاصمة الأمبراطورية من روما القديمة. إلى روما الجديدة (القسطنطينية) . وهكذا يبدأ التاريخ البيزنطى وتصبح مصر ولاية بيزنطية (٣٣٠م) .

وقد تميزت السياسة البيزنطية فى مصر بالبيروقراطية الفاسدة وباستشراء النظم الاقطاعية ، وباضطهاد للمخالفين لعقيدة القسطنطينية ، وانتشار قطاع الطرق واللصوص ، حتى قيل إن " ضرع البقرة المصرية الحلوب " قد جف على يد الولاة والموظفين البيزنطيين .

وفى عهد الأمبراطور البيزنطى هرقل (٦١٠ - ٦٤١ م) فرض هرقل على أهل مصر مذهبا دينياً مخالفاً لعقيدة المصريين فقابل

---

* صور أمير الشعراء لحظة انتحار كليوبتره بسم الأفعى أجمل تصوير فى الآتى :

« أأدخل فى ثياب الذل روما ... وأعرض كالسبى على الرجل ؟
أموت كما حييت لعرش مصر ... وأبذل دونه عرش الجمال
حياة الذل تدفع بالمنايا ... تعالى حية الوادى تعالى » .

كما عبر الكاهن المصرى أنوبيس ، وكان فى بلاط كليوبترة عن هذه اللحظه الدارمية بالآتى :

« اكشرى أيها الذئاب عواءً ... وادعى فى البلاد عزاً وقهراً
انشدى واهتفى وغنى وضجى ... واسبحى فى الدماء نابا وظفرا
لا وايزيس ماتملكت إلا ... واديا من ضياعنم الناب ققرا
قسما ما فتحتمو مصر لكن ... قد فتحتم بها لرومة قبراً » .

المصريون ذلك بسخرية لاذعة ووصفوا هذا المذهب (بالملكانى) أى «مذهب الملك» ، وأرسل هرقل واحداً من كبار أساقفته يدعى سيروس لإجبار المصريين على الإنصياع للمذهب الجديد . ولكن كنيسة الإسكندرية (القبطية) رفضت الانصياع ، ولما شعر بطريرك الإسكندرية بنيامين (٦٢٣ - ٦٦١ م) بالخطر يتهدد حياته هرب من الإسكندرية إلى مريوط ومنها إلى صحراء وادى النطرون ، خوفاً من بطش السلطات البيزنطية .

فى أثناء ذلك كانت جيوش الدولة الإسلامية العربية الفتية تتقدم شرقاً وغرباً تقلم اظافر الأكاسرة والقياصره الذين طالما أذلوا القبائل العربية وامتصوا خيراتها وتجارتها ، وكانت واقعة القادسية ثم واقعة اليرموك ، وبعدهما دانت فارس والشام وفلسطين للعرب ووصل الخليفة الراشد عمر بن الخطاب (الفاروق) بنفسه إلى أرض فلسطين تلبية لدعوة بطريركها سوفرونيوس ليتسلم بيت المقدس (٦٣٩م) . ودخل أمير المؤمنين أرض السلام ليزيدها سلاماً ، وأصدر لأهلها عهدا هو المعروف بالعهد «العمرى» ، وورد فيه :

«بسم الله الرحمن الرحيم . هذا ما أعطى عبد الله عمر أمير المؤمنين أهل إيليا (بيت المقدس) من الأمان . أعطاهم أماناً لأنفسهم وأموالهم ، وكنائسهم وصلبانهم وسقيمها وبريئها وسائر ملتها . إنه لا تسكن كنائسهم ولا تهدم ، ولا ينتقص منها ولا من خيرها ، ولا من شئ من أموالهم ، ولا يكرهون على دينهم ..»

كانت أخبار الفتح العربى لفلسطين وترحيب أهلها بالعرب تصل بالضرورة إلى مسامع أهل مصر . وكانت سماحة عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - وعدله قد طارت ليتهامس بها الخاص والعام فى أرض النيل . وتطلع البطريرك بنيامين الهارب فى

الصحراء وأبناؤه الرهبان والرعية المكتويه بعبء الضريبة وفساد جباه الضرائب الروم ، تطلعوا جميعا إلى أبناء أختهم هاجر أم إسماعيل لتخليص خؤلتهم من مخالب الروم(*) .

وقد عهد الخليفة عمر بن الخطاب للقائد المحنك عمرو بن العاص مهمة فتح مصر وطرد الروم منها ، وبعد انتصار العرب على الروم فى معركة حصن بابليون (مصر القديمة) فى ٩ أبريل ٦٤١م ، تنفس المصريون الصعداء . ويذكر المؤرخون (ابن عبد الحكم والشيخ تقى الدين المقريزى وغيرهما) أن سبعين ألفا من رهبان مصر وفدوا من مختلف صوامعهم وبيعهم لمقابلة عمرو بن العاص حاملين الدفوف والنواقيس مرغبين مرحبين بالعرب معلنين الولاء والحب لخلاصهم من ظلم الروم . واستقبل عمرو بن العاص البطريرك بنيامين خير استقبال وأمنه على نفسه وعلى كرسيه فى الإسكندرية كى يضطلع بواجبه الرعوى لكنيسة مصر بعد أن تحررت من قبضة رجال هرقل وطغيانهم .

وفى نوفمبر ٦٤١م دخل عمرو بن العاص مدينة الإسكندرية ، وفى ١٧ سبتمبر ٦٤٢م أبحر الروم عن المدينة بصفة نهائية . وهكذا حرر العرب أرض مصر من كابوس هلينى رومانى بيزنطى طويل ، وتنفس أهل مصر الضعداء ، وسطعت على أرض النيل

(*) من أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم عن مصر :

«قسمت البركة عشرة أجزاء تسعة فى مصر وجزء فى الأمصار كلها ، ولا يزال فى مصر بركة أضعاف ما فى الأرض كلها» .

«إذا فتح الله عليكم مصر فاتخذوا فيها جندا كثيفا فذلك الجند خير أجناد الأرض ، لأنهم فى رباط إلى يوم القيامة» .

« إذا إفتتحتم مصر فاستوصوا بالقبط خيرا ، فإن لهم ذمة ورحما» .

الكريم شمس فجر جديد من السماحة والحرية والأخاء ، وكان موقف عمرو بن العاص ترجمة لقوله تعالى فى الآية الكريمة :

« بسم الله الرحمن الرحيم »

لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَىٰ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ (٨٢) وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَىٰ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا ءَامَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ (٨٣) وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَن يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ (٨٤) فَأَثَابَهُمُ اللَّهُ بِمَا قَالُوا جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ (٨٥)

« صدق الله العظيم » (سورة المائدة : ٨٢ - ٨٥)

وهكذا يبدأ تاريخ مصر الإسلامية فى عصر الخلفاء الراشدين (٦٤١ - ٦٦٠م) ، فالعصر الأموى (٦٦٠ - ٧٥٠م) ؛ فالعصر العباسى (٧٥٠ - ١٢٥٨م) ؛ بما تخلله من استقلال مصر فى عهد الدولة الطولونية (٨٦٨ - ٩٠٥م) ؛ فالدولة الإخشيدية (٩٣٥ - ٩٦٩م) ؛ فالخلافة الفاطمية (٩٦٩ - ١١٧١م) التى زينت الأمة العربية والعالم الإسلامى بالأزهر الشريف (٩٧٠م) أول جامعة عرفها العالم ؛ فالسلطنة الايوبيه (١١٧١ - ١٢٥٠م) التى أقامها البطل صلاح الدين الذى لقن الغرب الأوربى وحملاته الصليبية العادية درسا لا ينسى فى يوم حطين (١١٨٧م) والذى استرد بيت المقدس من أيديهم فى نفس العام ؛ فعصر السلاطين المماليك (١٢٥٠ - ١٥١٧م) الذين لقنوا ملك فرنسا لويس التاسع الدرس فى دار «ابن لقمان» بالمنصورة سنة ١٢٥٠م ، والذين بقيادة السلطان سيف الدين قطز وساعده

المرموق بيبرس قد لقنوا مغول هولاكو الدرس فى عين جالوت سنة ١٢٦٠م وانقـــذوا بذلك حضارة الشرقيين الأدنى والأوسط بل ودول حوض البحر المتوسط من خطرداهم ، ثم كانت نهاية الصليبيين على يد السلطان الاشرف خليل بن قلاوون الذى طرد آخر فلولهم من عكا سنة ١٢٩١ م .

بعد هذا يأتى دور العثمانيين (١٥١٧ - ١٨٨٢م) بمالهم وماعليهم ، وما تخلل حكمهم لمصر من حملة نابليون بونابرت (١٧٩٨ - ١٨٠١م) طمعا فى ضم مصر ريشة إلى تاج امبراطوريته التى كان يخطط لها ثم مجئ محمد على باشا واليا على مصر (١٨٠٥م) وصولا إلى ثورة البطل أحمد عرابى ضد فساد الخديوى توفيق وبطانته من الأجانب (١٨٨١م) ؛ ثم الاحتلال البريطانى لمصر (١٨٨٢م) ؛ فثورة ١٩١٩م بزعامة سعد باشا زغلول ضد الاحتلال البريطانى ، ثم حرب فلسطين (١٩٤٨) ضد التغلغل الصهيونى فى أرض فلسطين بتشجيع ومساندة من القوى الأوربية الكبرى والتى كانت القشة التى قصمت ظهر البعير وصولا إلى ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢م المجيدة التى رصدت نفسها لتصفية الحساب مع الاستعمار والصهيونية العالمية ، والتى وضعت مصر فى المكان الذى يليق بها على خريطة العالم كما نشهده ويعترف به الدانى والقاصى من حولنا .

وبعد ....ليس فى ماضينا شى نتبرأ منه ، وليس فى حاضرنا شئ نخجل عنه . الجد فرعونى أصيل والأب عربى نبيل ، والأم فى الحالين هى ابنه النيل الكريم .

والله الموفق

سلسلة دورية تصدرها

الإدارة المركزية لإعداد القادة

السيدة/ عليه عبد المعز

السيد/ سليمان بديع

السيد/ إبراهيم خليل النجار

السيدة/ أمل عبد الستار غريب

طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية